الباب الثانى

كتابة الشعر الجاهلى وتدوينه

الفصل الأول

كتابة الشعر الجاهلى

١

فإذا صح ماذهبنا إليه فى بحثنا فى الباب السابق — ونرجو أن يكون فى جملته صحيحاً — فإن من الطبيعى أن نستنبط منه ثلاث نتائج ، ذكرناها فى مواضعها ، ونجمعها الآن لنقدم بها بين يدى هذا الفصل .

الأولى : قِدَمُ الكتابة فى بلاد العرب ، فقد استبان لنا بالدليل المادى الملموس ، المتمثل فى النقوش الحجرية المكتشفة ، أن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع الميلادى ، وكتبوا بهذا الخط العربى ثلاثة قرون قبل الإسلام على أقل تقدير .

والثانية : معرفة عرب الجاهلية بالكتابة معرفة فيها شىء من الانتشار يُبْعِد عنهم ما وُصموا به من الجهل بها ، وقد دللنا على ذلك بوفرة من النصوص والروايات تنبئ عن النشاط التعليمى فى الجاهلية ، وقيام « الكُتَّاب » أو « المكتب » آنذاك ، وتوافر عدد المعلمين الذين كانوا يعلمون الكتابة ، وذلك كله فى البيئات المتحضرة مثل : مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبار .

والثالثة : اتساع ميدان الكتابة وتشعب موضوعاتها ، فذكرنا ضروباً عدة من الموضوعات التى كانوا يقيدونها بالكتابة ، وأثبتنا وصفاً لأدوات الكتابة وآلاتها وأوصاف الخط الجاهلى . وكان عمادنا فى كل ما ذكرنا : النقوش الحجرية ، والشعر الجاهلى ، والروايات والنصوص الجاهلية ، وبعض الروايات والنصوص الإسلامية التى تنسحب فى دلالاتها وإشاراتها على العصر الجاهلى .

وقد انتهى بنا بحثنا المتقدم إلى أن عرب الجاهلية قد عرفوا من الكتابة

صورتها الساذجة اليسيرة حين كتبوا رسائلهم ، وصكوك حسابهم وعهودهم ومواثيقهم ، ونقشوا خواتمهم وشواهد قبورهم. وهذه كلها لا تتجاوز فى حجمها صحيفة واحدة قد تنقص قليلاً أو تزيد قليلاً . وقد عرفوا أيضا من الكتابة صورة أرقى من هذه الصورة الساذجة ، وأكبر حجماً ، وأشد تعقيداً ، وهى التدوين . والفرق بين الصورتين – لغة واصطلاحاً – واضح ، إذ أن الأولى لا تعنى أكثر من مجرد التقييد العابر لما يعرض من شئون الحياة ، ولكن التدوين إنما يعنى جمع الصحف وضم بعضها إلى بعض حتى يكون لنا منها ديوان – وهو مجتمع الصحف . ولا بد للتدوين من أن يكون عملاً مقصوداً متعمداً يرمى إلى هذه الغاية ، لا عملاً عابراً عارضاً . ولم نذكر فى الفصل السابق من أمثلة هذا التدوين إلا مثلا واحداً هو الكتب الدينية .

وهدفنا فى هذا الفصل تخصيص الحديث بكتابة الشعر الجاهلى منذ أول عهدها الذى استطعنا أن نكشف عنه ، ثم نمضى بها حتى نصلها بتدوين هذا الشعر الجاهلى الذى وصل إلينا فى هذا العصر والذى جمعه الرواة العلماء فى أواخر القرن الثانى للهجرة .

٢

وموضوع كتابة الشعر الجاهلى – كموضوع الكتابة عامة – ذو شقين ، الأول : الكتابة الضيقة التى لا تعدو مجرد التقييد ، والثانى : الكتابة الواسعة التى تتجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة التدوين . وقد رأينا أن نبدأ بالحديث عن تقييد الشعر الجاهلى ، ونؤخر الحديث عن تدوينه إلى أن نضعه فى مكانه المناسب له من حديثنا عن أوائل التدوين وتأليف الكتب فى الجاهلية وصدر الإسلام .

ويبدو لنا أن الأدلة على تقييد الشعر فى الجاهلية يصح أن تُقسّم ضربين ؛ الضرب الأول : أدلة عقلية استنباطية ؛ والثانى : أدلة صريحة مباشرة .

أما الأدلة العقلية الاستنباطية فجماعها فى أربعة أمور :

الأول : هو هذا الذى قدمناه فى الفصل السابق ، وتجشمنا مشقة الخوض فيه وبيانه والكشف عن أجزائه وتفاصيله . ولم نكن لنركب هذا المركب لمثل هذا البحث لو لم نرمِ إلى أن نتخذ منه مُتّكأً نعتمد عليه فى بحث كتابة الشعر الجاهلى بخاصة . وذلك أن عرب الجاهلية هؤلاء الذين كانوا يقيدون بالكتابة دينهم ورسائلهم وعهودهم وصكوك حسابهم وسائر ما قدمناه فى بحثنا عن موضوعات كتابتهم — لا يصح فى الفهم أن يقيدوا كل ذلك من أمورهم : دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها ، حقيرها وعظيمها — ثم يهملوا تقييد شعرهم . والشعر عندهم كما هو معروف متداول ، فى الذروة العليا من القيمة والخطر ، إذ هو ديوان أمجادهم وأحسابهم ، وسجل مفاخرهم ومآثرهم ، قال الجاحظ [١] : « . . . فكل أمة تعتمد فى استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها ، على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال . وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها » . وقال ابن قتيبة [٢] عن الشعر إن الله جعله لعلوم العرب مستودعًا ، ولآدابها حافظاً ، ولأنسابها مقيداً ، ولأخبارها ديوانًا لا يرثّ على الدهر ولا يبيد على مر الزمان .

فإذا كانت القبائل تقيّد عهودها ومواثيقها — كما مر بنا — أفليس من الطبيعى إذن أن تقيد شعر شعرائها الذين يدافعون به عن حياضها ، ويذودون به عن أمجادها ، ويسجلون به وقائعها وأيامها ، ويعدّدون فيه انتصاراتها ومآثرها ؟ ونحن نعلم أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس [٣] .

---

(١) الحيوان ١ : ٧١ — ٧٢ .
(٢) تأويل مشكل القرآن : ١٤ .
(٣) ابن رشيق ، العمدة ١ : ٤٩ .

وقد قال الأعشى يخاطب قومه ويبين لهم فضله عليهم[١] :

وأَدْفَعُ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ وأُعِيرُكُمْ ... لِسَاناً كَمِقْرَاضِ الخَفَاجِيِّ مِلْحبَا

وبلغ من عناية القبائل بالشعر أن بنى تغلب كانوا يعظمون قصيدة عمرو ابن كلثوم المعلقة ، وكان يرويها صغارهم وكبارهم حتى هُجُوا بذلك، فقال بعض شعراء بكر بن وائل[٢] :

أَلْهَى بَنِى تَغْلِبٍ عن كل مَكْرُمَةٍ ... قصيدةٌ قالها عَمْرُو بنُ كُلْثُوم

يَرْوُونَها أَبَدًا مُذْ كان أَوَّلُهمْ ... يالَلرِّجالِ لِشعْرٍ غيرِ مَسْئُوم

ومن أبين ما يدل على خطر الشعر عند القوم آنذاك ما ذكره أبو عبيدة قال[٣] : كان الرجل من أنف الناقة إذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بنى قريع . فما هو إلا أن قال الحطيئة :

قومٌ هُمُ الأَنفُ والأَذْنَابُ غيرُهُمُ ... ومن يُسَوِّى بأَنفِ الناقةِ الذَّنَبَا ؟

فصار الرجل منهم إذا قيل له : ممن أنت ؟ قال : من بنى أنف الناقة .

وكما كانت القبائل حريصة على تسجيل مفاخرها فى شعر شعرائها كانت كذلك حريصة على أن تتجنب ذمّ شعراء القبائل الأخرى وهجاءهم . وهل أبلغ فى الدلالة على خشيتهم الهجاء وتخوّفهم أن يبقى ذكر ذلك فى الأعقاب ويُسَبّ به الأحياء والأموات — من أنهم كانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق وربما شدّوا لسانه بنِسْعة كيلا يهجوهم ، كما صنعت بنو تَيْم بعبد يغوث ابن وقاص الحارثى حين أُسِرَ يوم الكُلاَب ، فقال فى ذلك عبد يغوث[٤] :

---

(١) ديوانه : ق ١٤ ب ٣١ . الملحب : القاطع .

(٢) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٤ .

(٣) البيان والتبيين ٤ : ٣٨ .

(٤) البيان والتبيين ٤ : ٤٥ ، وانظر تفصيل أثر الشعر فى القبائل والأفراد فى المصدر نفسه ج ٤ من ص ٣٥ إلى ص ٤٨ .

أَقُولُ ، وقد شَدُّوا لِسَانِى بِنِسْعَةٍ   أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقوا من لِسانيا

ذلك هو شأن القبائل . أما الأفراد فلا يقلون فى هذا عن قبائلهم . فإن هذا الملك أو السيد أو الشريف أو الثرى الذى كان يقيد صك حسابه ، ويقيد قطوط جوائزه وعطاياه ، ويكتب الرسائل فى شتى شؤونه — أيُعقَل أنه كان يغفل عن أن يولى الشعر الذى يمدح به مثل هذه العناية ؟ وقد كانت عناية الممدوح بمدح الشاعر تتمثل فى هذه الهبات السخية من الإبل والملابس والحلى والقيـان التى كان يهبها الممدوح للشاعر ، لأنه بمدحه يُذيع اسمه فى العرب ، ويُعلى من قدره بينهم ، ويخلد ذكره على مر السنين . فكان الممدوح حريصاً أشد الحرص على مدح الشاعر ، يجهد فى إرضائه بما يقدمه إليه من عطايا ، ويتكلف لذلك فوق ما فى وسعه ، حتى إذا أعيته الحيلة ولم يجد وسيلة إلى إرضاء الشاعر بات كئيباً يخشى مغبة الهجاء ؛ وهذا مخارق بن شهاب سيد بنى مازن ، أتاه محرز بن المُكَعْبِر العنبرى الشاعر فقال : إن بنى يربوع قد أغاروا على إبلى فاسْعَ لى فيها . فقال مخارق : وكيف وأنت جار وَرْدان ابن مَخْرمَة ؟ فلما ولّى عنه محرز محزوناً بكى مخارق حتى بلّ لحيته ، فقالت له ابنته : ما يبكيك ؟ فقال : وكيف لا أبكى ، واستغاثنى شاعر من شعراء العرب ولم أُغثه ؟ والله لئن هجانى ليفضحنى قوله ، ولئن كفَّ عنى ليقتلنى شكره ! ثم نهض فصاح فى بنى مازن فردت عليه إبله [1] .

ولّى الزبرقانُ بن بدر الحطيئةَ فطمع فى أن يصفيه مدائحه فسيَّره إلى زوجته ، أو أمه ، وكتب إليها أن تكرمه وتحسن إليه . ولكن بغيض بن عامر — وكان ينازع الزبرقان الشرف — مازال يسعى حتى استمال إليه الحطيئة ، فارتحل إليه ، فضرب له بغيض وإخوته قبة ، وربطوا بكل طنب من أطنابها حلة

---

(١) البيان والتبيين ٤ : ٤١ — ٤٢

هجَرية ، وأراحوا عليه إبلهم، وأكثروا عليه التمر واللبن . فلما قدم الزبرقان ولم يجده وعلم بقصته ، نادى فى قومه ، وركب فرسه وأخذ رمحه ، وسار حتى وقف على بغيض وقومه ، وطلب منهم رد الشاعر ، وكاد أن يقع بين الحيين حرب . كل ذلك إكراماً للشاعر وطمعاً فى مدحه وخوفاً من هجائه[1].

فإذا كان أمر الشعر بهذا الخطر للممدوحين ، فهل كان ملوك الحيرة ، وملوك غسان ، وأشراف المدينة والطائف وساداتها وأثرياؤها ، وسادات نجران واليمن ، هل كان كل أولئك لا يقيِّدون ما يُمدَحون به من الشعر مع أنهم كانوا يقيدون سائر أمورهم ؟

ورب معترض يقول : فما بال الشعر القديم فى جاهلية الأمم الأخرى لم يكن مكتوباً — فيما يقال — ثم نفرض أن العرب فى جاهليتهم قد كتبوه ؟ وما أيسر الإجابة عن هذا الاعتراض ! فنحن إنما قدمنا ما قدمنا فى الفصل الأول من هذا البحث لتدل على أن جاهلية العرب تختلف اختلافاً واسعاً عن جاهلية الأمم الأخرى . فجاهلية تلك الأمم إنما هى الطور البدائى الساذج من حياتهم قبل أن ينتقلوا إلى طور حضاراتهم . فى ذلك الطور البدائى كان من الطبيعى ألا يكتبوا شعرهم لأنهم لم يكونوا يعرفون من صور الكتابة ما يعينهم على تقييد أمورهم ؛ وأما جاهلية العرب فيغنينا عن إعادة القول فيها ما قدمناه من تبيان معرفتها بالكتابة معرفة قديمة العهد ، فيها شيء من الانتشار وتعدد الموضوعات والأدوات . ولذلك نعجب لقوم تكون معرفتهم بالكتابة هذه المعرفة التى بسطنا فيها القول ثم لا يقيدون شعرهم . ونحن إنما نتحدث عن تقييد بعض الشعر لا كله ، حتى يستقيم لنا الاستنتاج والاستنباط ؛ ونقصد بالتقييد — كما قدمنا — مجرد الإثبات بالكتابة لأبيات أو قصائد متفرقة من الشعر ، ولا نعرض الآن لذكر التدوين الشامل المقصود ، فلذلك مجاله بعد صفحات من هذا الباب .

---

(١) الأغانى ٢ : ١٨٠ — ١٨٣ .

٣

الثانى : أما الدليل الثانى من هذه الأدلة العقلية الاستنباطية فتصل أوثق الاتصال بالدليل الأول . فإذا كان الشعر المسجل لمفاخر القبائل ومحامد الأفراد له خطره وقيمته عند القبائل والأفراد الممدوحين ، فقد كان له من الخطر والقيمة عند الشعراء المادحين أنفسهم ما يضارع ما كان له عند الممدوحين أو يزيد . فقد كان هذا الشعر عند غير المتكسبين بالمدح واجباً قومياً تفرضه على الشاعر طبيعة ارتباطه بقبيلته ، أو واجباً أخلاقياً تمليه عليه مآثر سلفت من صاحبها لقبيلة الشاعر أو للشاعر نفسه. وأما المتكسبون بالشعر فقد كان هذا الشعر مورداً من موارد ارتزاقهم ، أو لعله هو المورد الوحيد لرزقهم . فكان الشاعر منهم يكثر التجوال والتطواف ، ويقطع على ظهر ناقته الآماد الواسعة يستسهل طىّ المفاوز ، ويستعذب تحمل المشاق والأهوال فى سبيل وصوله إلى ممدوحه الذى سيجزيه عما تجشم وتكلف ، ويقضى حاجته ، ويكفيه رزقه . أليس عجيباً بعد ذلك ألا يُعْنَى الشاعر ، وهذه قيمة الشعر عنده ، بأن تحفظ الكتابةُ شعره أو بعضه ؟ وسيشتد العجب إذا علمنا أن بعض الشعراء لم يكونوا فى حاجة إلى أن يتلمسوا الوسائل البعيدة لكتابة شعرهم ويتطلبوا من يكتبه لهم لأنهم كانوا هم أنفسهم يحسنون الكتابة ويتقنونها . على أنه كانت ثمة دواع تضطر حتى من لا يعرف الكتابة من الشعراء ، إلى أن يستكتب من يعرفها ؛ ومن أنصع الإشارات إلى ذلك ما ذكره ابن الأعرابى قال[١] : بلغ عمرو بن كلثوم أن النعمان بن المنذر يتوعده ، فدعا كاتباً من العرب ، فكتب إليه :

أَلا أَبْلغِ النُّعْمـــانَ عنِّى رِسَالةً ... فمَدْحُكَ حَوْلِىٌّ وذَمُّكَ قَارحُ

---

(١) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٨ .

متى تلْقَنى فى تَغْلِبَ ابنةِ وائلٍ   وأشياعِها ترْقَى إليك المسالحُ

فإذا كان هذا شأنَ من لا يعرف الكتابة من الشعراء ، فما ظنك بمن كان هو نفسه كاتباً ؟

وحسبنا أن نعرض أسماء من عثرنا عليهم من شعراء الجاهلية ممن كانوا يكتبون ، على أن نشير إلى أن إغفال النصّ على معرفة غيرهم بالكتابة لا يعنى أن هؤلاء الذين لم ينص على علمهم بالكتابة كانوا جميعاً يجهلونها .

فمنهم عدىّ بن زيد العبادىّ : الذى طرحه أبوه — حين أيفع — فى الكُتَّاب ، حتى إذا حذق الخط العربى أرسله إلى كُتَّاب الفارسية ، فصار أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية ، ثم انتقل إلى بلاط فارس فأصبح كاتباً بالعربية ومترجماً فى ديوان كسرى[١] .

ومن الشعراء الذين كانوا كتاباً بالعربية ومترجمين فى بلاط فارس : لقيط ابن يعمر الإيادى[٢]. وهو الذى أرسل إلى قومه ينذرهم بعزم كسرى على قتالهم ، وصحيفته فى ذلك مشهورة ابتدأها بقوله :

سَلامٌ فى الصَّحيفةِ من لَقِيطٍ   إلى مَنْ بالجَزيرةِ من إيادِ

وختمها بقوله :

هذا كِتابى إليكُمْ والنَّذِيرُ لكُمْ   لِمَنْ رأى رأيَهُ منكُمْ ومن سَمِعَا

وهى قصيدة طويلة تزيد على الخمسين بيتاً .

ومن الشعراء الذين تعلموا الخط والكتابة فى مدارس الحيرة : المرقّش وأخوه حرْملة ، وكان أبوهما سعد بن مالك وضع مرقشاً وأخاه — وهما أحب بنيه إليه —

(١) الأغانى ٢ : ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) مختارات ابن الشجرى (المطبعة العامرة سنة ١٣٠٦ هـ) ص ٢ — ٧ ، وانظر أيضاً ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ١٥٢ ، والأغانى (ساسى) ٢٠ : ٢٤ .

عند رجل من أهل الحيرة ، فعلمهما الخط والكتابة[١].

ومن شعراء المدينة الذين كانوا يكتبون : سويد بن صامت الأوسى[٢] ، وعبد الله بن رَوَاحة[٣] ، وكعب بن مالك الأنصارى وقد كتب شعراً فى يوم أحُد ذكر فيه أسماء النقباء وأرسله إلى أبى سفيان بن حرب وأُبَىّ بن خلف الجمحىّ يرد عليهما[٤].

ومن الشعراء الكتاب كذلك : الربيع بن زياد العبسى ، وكان هو وإخوته من الكَمَلة ، وقد مر بنا أن من صفات الكامل فى الجاهلية أن يحسن الكتابة ، وقد كتب الربيع بن زياد إلى النعمان بأبيات يعتذر إليه فيها[٥] .

ومن هؤلاء الشعراء الكتاب : الزبرقان بن بدر[٦] ، والنابغة الذبيانىّ ، وقد كتب قصائد أرسلها إلى النعمان يعتذر إليه بها ويحلف له : أنه ما فرط منه ذنب[٧].

ومنهم كعب بن زهير بن أبى سلمى وأخوه بُجَيْر بن زهير ، وقد كتب إلى بجير شعراً يلومه فيه على إسلامه[٨] ، فكتب إليه بجير ينذره ويعلمه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قتل بالمدينة كعب بن الأشرف[٩].

ومن هؤلاء الشعراء الكتاب : لبيد بن ربيعة العامرى ، وقد كان عمر بن الخطاب أرسل إليه يطلب منه أن يكتب له ما قاله فى الإسلام من الشعر ، فانطلق لبيد إلى بيته فكتب سورة البقرة فى صحيفة ، ثم أتى بها فقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر[١٠] . وقد كان من الناس من يكتب إلى لبيد

---

(١) المفضليات : ٤٥٩ – ٤٦٠ ، وانظر الأغانى ٦ : ١٣٠ .
(٢) الأغانى ٣ : ٢٥ .
(٣) ابن سعد ٣/٢ : ٧٩ .
(٤) ابن حبيب ، المحبر : ٢٧١ – ٢٧٤ .
(٥) الأغانى ١٦ : ٢٢ – ٢٣ ، وأمالى السيد المرتضى ١ : ١٣٦ ، وشرح شواهد المغنى : ٦٨ .
(٦) الأغانى ٢ : ١٨٠ .
(٧) البغدادى ، الخزانة ٢ : ٢٩٢ – ٢٩٣ .
(٨) الشعر والشعراء ١ : ٩١ .
(٩) جمهرة أشعار العرب : ٢٤ .
(١٠) الخزانة ٢ : ٢١٥ .

أيضاً شعراً ، وذلك أن الوليد بن عقبة خطب الناس بالكوفة فى يوم صبّا ، وقال : إن أخاكم لبيداً آلى ألا تهب له الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن ، وهذا اليوم من أيامه ، فأعينوه ، وأنا أول من أعانه . ونزل ، فبعث إليه بمائة بكرة ، وكتب إليه أبياتاً من الشعر . . فلما أتاه الشعر قال لابنته : أجيبيه[١]. ومما يؤيد معرفة لبيد بالكتابة فى الجاهلية أن فى شعره الجاهلى كثيراً من الإشارات والمعانى الدينية التى تدل على أنه كان فى الجاهلية يؤمن بالبعث . وقد كان أكثر هؤلاء الذين كانوا على دين فى الجاهلية يحسنون الكتابة[٢].

ومن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يؤمنون بالبعث فى الجاهلية ويقرأون الكتب الدينية : أمية بن أبى الصلت[٣].

ومن هؤلاء الشعراء المخضرمين الذين ولدوا فى الجاهلية وعُمِّروا فى الإسلام إلى زمن عبد الملك بن مروان واشتهروا بالعلم والفقه : مسروق بن عبد الرحمن[٤] ، وشُريحْ بن الحارث الكندىّ[٥] .

ولا بد من الإشارة إلى أن النص على معرفة الشعراء بالكتابة لم يكن فى الكتب العربية نصًّا صريحاً مقصوداً لذاته ، وإنما أكثر ما يكون استطراداً عابراً لتوضيح سياق قصة تتصل بالشاعر ، أو بقومه ، أو بحادثة بعينها . ويبدو لنا أن الذين خلّفوا لنا هذه الكتب — وهم الذين سجلوا تاريخنا الأدبى — كانوا يتوهمون أن معرفة الشاعر بالكتابة عيب ينتقص من شاعريته ، وذلك لأنهم كانوا يظنون أن معرفة الكتابة أمر حادثٌ طارئٌ على العرب ، وهو من أمور المدنية التى كانت تفسد الأعراب وسليقتهم اللغوية الفطرية ، فكانوا يشكّون

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٢٣٣ — ٢٣٤ .
(٢) انظر إيمان لبيد بالبعث فى الجاهلية فى الإصابة ٦ : ٤ — ٥ .
(٣) ابن قتيبة ، المعارف : ٢٨ ؛ والأغانى ٣ : ١٢١ — ١٢٢ .
(٤) ابن سعد ٦ : ٥٠ ، ٥٣ .
(٥) المصدر السابق ٦ : ٩٠ .

فى كل أعرابىّ يتصل بالمدينة ويكتسب من مظاهر حضارتها . قال الجاحظ[١] : « سمعت ابن بشير ، وقال له أبو الفضل العنبرى — يبدو أنه أحد الأعراب — : إنى عثرت البارحة بكتاب ، وقد التقطته ، وهو عندى ، وقد ذكروا أن فيه شعراً ، فإن أردته وهبته لك . قال ابن بشير : أريده إن كان مقيداً . قال : والله ما أدرى أمقيد هو أم مغلول . ولو عرف التقييد لم يلتفت إلى روايته » .

وهذا الحكم الذى فرضوه على الأعراب سحبوه أيضاً على الشعراء أنفسهم ، حتّى الشعراء الإسلاميين الذين كانوا معروفين باتصالهم الوثيق بالبادية ، فكانوا لذلك مصدراً لهؤلاء اللغويين والرواة ومعتمَداً لهم فيما يذكرونه من شواهد وأمثلة. وأوضح ما يبين لنا ذلك أن أبا النجم العجلىّ الراجز وذا الرمة قد عيبا بمعرفة الكتابة فأنكرها ذو الرمة . قال أبو بكر الصولى[٢] : قد عيب أبو النجم بهذا [أى بقوله :

أقبلتُ من عِنْد زيادٍ كالْخَرِفْ تَخُطُّ رِجْلاى بخطٍّ مُخْتَلِف
كأنما قد كَتَبَا لامَ ألف]

فقيل : لولا أنه يكتب ما عرف صورة لام ألف ، كما عيب ذو الرمة فى وصف ناقته :

كأنما عينُها فيها — وقد ضَمَرَتْ وضَمَّها السَّيْرُ فى بعض الأضاميمُ[٣]

وقال أيضاً : « قرأ حماد الراوية على ذى الرمة شعره ، قال : نراه قد ترك فى الخط لاماً — فقال له ذو الرمة : اكتب لاماً . فقال له حماد : وإنك لتكتب؟ قال : اكتم علىّ فإنه كان يأتى باديتنا خطاطٌ فعلمنا الحروف تخطيطاً فى الرمال

(١) البيان والتبيين ١ : ١٦٣ — ١٦٤ .
(٢) أدب الكتاب : ٦٢ ، وانظر أيضاً الشعر والشعراء ١ : ٥٠٧ ، قال ابن قتيبة : وقال عيسى بن عمر (توفى سنة ١٤٩) قال لى ذو الرمة : ارفع هذا الحرف فقلت له : أتكتب ؟ فقال بيده على فيه ، أى : اكتم على ، فإنه عندنا عيب .
(٣) الأضاة : الغدير . يقول : كأن عينها دارة ميم لتدويرها .

فى الليالى المقمرة فاستحسنتها فثبتت فى قلبى ، ولم تخططها يدى » .

فإذا كان هذا رأى هؤلاء العلماء الرواة فى القرن الثانى الهجرى فى الشعراء الإسلاميين أنفسهم ، فلا بد أن يكون رأيهم هذا أكثر تشدداً وغلوًّا فى الشعراء الجاهليين ؛ ولذلك نحسب أن أخبار معرفة الشعراء الجاهليين بالكتابة قد وصلتنا ناقصة مبتورة مشوهة ، ولولا هذا الوهم الخاطئ لوصلنا الشىء الكثير الذى يدعم ما نذهب إليه .

٤

الثالث : وثالث هذه الأدلة متصل كذلك بالسابقين لا يكاد ينفصل عنهما ، ومداره على طبيعة ضرب من الشعر هو هذا الشعر الذى كان يتكلفه صاحبه تكلفاً بعد جهد ومشقة ، لا يرتجله ارتجالا ، ولا ينساب منه عن طبع وفى يسر وسماحة ، وإنما يقول البيت أو الأبيات ثم يطويها إلى أن توافيه أبيات أخرى يضمها إلى سابقاتها ، فإذا ما اكتملت له القصيدة طواها كلها ، وأخذ يعيد فيها نظره : يهذب من ألفاظها كلما سنح له وجه من وجوه التهذيب ، ويقوّم بعض ما لم يكن قد استقام له من معانيها كلما واتته فرصة التقويم . ذلك هو الشعر الحولى المحكّك ، وأولئك الشعراء هم عبيد الشعر كما سماهم الرواة العلماء[١]. قال الجاحظ[٢] : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتاً ، وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوّله الله تعالى

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ : ٢٣ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٩ .

من نعمته . وكانوا يسمّون تلك القصائد : الحوْليات والمقلّدات والمنقّحات والمُحكَمات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً ». وقال ابن جنى[١] : « ليس جميع الشعر القديم مرتجلا ، بل قد كان يعرض لهم فيه من الصبر عليه، والملاطفة له ، والتلوّم على رياضته ، وإحكام صنعته نحوٌ مما يعرض لكثير من المولّدين ، ألا ترى إلى ما يروى عن زهير ، من أنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات زُهير ، لأنه كان يحوك القصيدة فى سنة ؟ . . » .

وهذا شاعر جاهلى هو امرؤ القيس بن بكر بن امرئ القيس بن حارث الكندىّ ، ويقال له الذائد ، يصف « عملية الانتخاب الفنى » للألفاظ فيقول[٢] :

أَذُودُ القَوَافِيَ عَنِّى ذِيَادَا ذِيادَ غُلَامٍ غَوِىٍّ جَرَادَا
فَلَمَّـا كَثُرْنَ وَأَعْيَيْنَنِى تَنَقَّيْتُ مِنْهُنَّ عَشْرًا جِيَادَا
فَأَعْزِلُ مَرْجَانَهَـا جَانِباً وَآخُذُ مِنْ دُرِّها المُسْتَجَادَا

ويقول كعب بن زهير[٣] :

فَمَنْ لِلْقَوافِى – شَانَهَا مَنْ يَحُوكُهَا – إِذَا مَا ثَوَى كَعْبٌ وَفَوَّزَ جَرْوَلُ
يقُولُ فَلَا يَعْيَا بشىْءٍ يَقُولُه وَمِنْ قَائِلِيهَا مَنْ يُسِىءُ وَيَعْمَلُ
نُقَوِّمُهَا حَتَّى تَقُومَ مُتُونُهَا فَيَقْصُرُ عَنْهَا كُلُّ مَا يُتَمَثَّلُ
كَفَيْتُكَ ،لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا تَنَخَّلَ مِنْها مِثْلَ مَا نَتَنَخَّلُ

(١) الخصائص ١ : ٣٣٠ .
(٢) الآمدى : المؤتلف والمختلف : ١٠ .
(٣) ديوانه : ٥٩ – ٦٠ .

وقد كان طُفَيل الغنوىّ فى الجاهلية يدعَى: المحبِّر، لتحسينه الشعر[١]. وقد مر بنا أن ابن فارس[٢] يرى أن بعض شعراء الجاهلية كان يعرف علم العربية والعروض : ما كان منه متصلاً ببحور الشعر أو بقوافيه وعيوبها — مهما تكن الألفاظ الاصطلاحية التى كانوا يستخدمونها —، وقد أضفنا بعض ما عثرنا عليه مما يؤيد رأى ابن فارس فى معرفة الشعراء الجاهليين بهذه العلوم .

ولا ريب أن ما قدمنا من حديث واضحُ الدلالة على أننا لا نعمم فيما نلقى من أحكام، فنحن لا نقصد أن كل شعراء الجاهلية كانوا يعرفون هذه العلوم، ولا نقصد كذلك أن جميع شعراء الجاهلية كانوا يتروَّوْن فى نظم قصائدهم ويثقفونها وينقحونها . ولكننا نخصّ بحديثنا هذه الفئة من الشعراء التى كانت ترى الشعر عملا عقليًّا تفكر فيه بعقلها كما تحسه بعاطفتها ، وتنظمه وترصّعه كما ترصَّع حجارةُ الفسيفساء .

وإذا كنا لا ننكر أن بعض الشعراء كانوا يرتجلون الشعر ارتجالا ، وأن بعضهم كان يندلث منه الشعر اندلاثاً هيناً سمحاً ، وأن هاتين الطائفتين ، أو بعض رجالهما ، لا تضطرهم طبيعة هذا الضرب من الشعر إلى تقييده وإثباته بالكتابة — إذا كنا لا ننكر ذلك ، فإنه لا بد لنا أن نتريث قليلا عند الفئة الأخرى من الشعراء وشعرهم ، وأن نتوقف عن أن نسحب عليهم حكم الضرب الأول . فنحن لا نفهم كيف يستطيع الشاعر الذى تمكث عنده القصيدة « حولا كريتاً ، وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله تعالى من نعمته . . . » ، والشاعر الذى كان يعرض له فى الشعر من « الصبر

---

(١) الزمخشرى : الفائق ١ : ٥٤١ .
(٢) الصاحبى فى فقه اللغة : ٨ — ١١ .

عليه ، والملاطفة له ، والتلوم على رياضته ، وإحكام صنعته نحوٌ مما يعرض لكثير من المولّدين . . » والشاعر الذى كانت تكثر عليه القوافى فيذودها عنه ذياداً ، ثم ينتقى منها الجيد انتقاءً ، وينظر إلى قوافيه وألفاظه نظرة الجوهرى إلى لآلئه : يعزل مرجانها جانباً ، ويأخذ المستجاد من درها . . ، والشاعر الذى يتنخل كلامه تنخلا ، ويثقف ألفاظه وقوافيه حتّى تلين متونها — نحن لا نفهم كيف يستطيع هؤلاء الشعراء أن يقوموا بهذا العمل العقلى الذى يستغرق هذا الوقت المديد دون أن يكون الشعر مقيّداً أمامهم على صحيفة يرجعون إليها بين وقت وآخر : يزيدون عليه أو ينقصون منه ، ويستبدلون لفظة بلفظة ، وقافية بقافية . وهل يصح بعد هذا أن نذهب إلى أن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة ، بل يصنّعونه تصنيعاً ، ويعرفون من بحوره وقوافيه ولغته وإعرابه ما لا يُكتسَب إلا بالتعليم والدراسة ، هل يصح أن نذهب إلى أن هؤلاء الشعراء كانوا أميين ويستطيعون أن يقوموا بهذه « العمليات » المعقدة المتراكبة فطرةً وطبعاً ، والشعر معلّق فى ذاكرتهم لا يعدوها ؟

أحسب أنْ لا ، وأحسب أن الأرجح أن هذا الضرب من الشعر المنقح كان يفرض عليهم أن يقيدوه على ما كانوا يملكون من صحف الكتابة التى بيّنا أنواعها فى فصل سابق .

٥

الرابع : وآخر هذه الأدلة العقلية الاستنباطية : هذا الشعر الجاهلى الحافل بذكر الكتابة وصورها ، والإشارة إلى أدواتها ، وتشبيه الأطلال والرسوم ببقايا الخطوط على الرّق أو المهارق أو سائر أنواع الصحف ، مما يدل على أن هؤلاء الشعراء الجاهليين كانوا على علم دقيق بأنواع الكتابة والحروف[1]. وقد ذكرنا هذا الشعر الجاهلى ، الذى يحفل بذكر الكتابة ، متفرقاً فى مواطنه من الباب السابق حين تحدثنا عن أدوات الكتابة وآلاتها ، واستشهدنا به لكل جزء من أجزاء البحث ، ووجدنا أن الشعر الجاهلى لم يغفل صغيرة ولا كبيرة فيه ، وإنما استوعب الموضوع من نواحيه ، ولمّه من أطرافه كلها . ومع ذلك فإننا سنشير إلى أبيات قليلة فيها من الصور الشعرية المركبة ما ينبئ عن أن قائلها لا بد أن يكون عالماً بهذه الصور ، وأن الجاهل بها لا يتأتّى له ذكرها ووصفها على هذا الوجه المفصل .

فأبو ذؤيب الهذلىّ يشير إلى كاتب يكتب ديناً له — وليس فى هذا دلالة على شىء مما نذهب إليه لو وقف عنده — ولكنه يصف فى بيتين كتابة هذا الكاتب الدائن ، وأنها كانت كتابة دقيقة يتأنق فيها حتى يجعلها مزخرفة مزينة كالعروس ليلة تُهدَى إلى زوجها . فوصف أبو ذؤيب هذه الكتابة بأنها « رقم » و« وشى » و « نمنمة » . ثم يصف لنا الصحف التى كان يكتب عليها ، ويذكر أنها ناعمة رقيقة « كالرياط » ، ولا يكتفى بذلك بل إنه ليعرف أن هذه الصحف لا يكتب عليها الكاتب أول مرة ، وإنما يستخدمها بعد أن استخدمها غيره من قبله ، فجاء صاحبنا الدائن فمحا الكتابة السابقة ، وكتب عليها دينه ، ولكن آثار الكتابة

---

(١) كتب الأستاذ المستشرق كرنكو مقالة عنوانها « استخدام الكتابة فى حفظ الشعر العربى القديم » "The Use of Writing for The Preservation of Ancient Arabic Poetry"
ونشرت فى سنة ١٩٢٢ مع مجموعة مقالات أخرى لكتاب مختلفين فى : A Volume of Oriental Studies to E.G. Browne, Edited by J.W. Arnold ص : ٢٦١ — ٢٦٨
وقد أقام بحثه على نقطتين : ذكر الكتابة فى الشعر القديم ، واختلاف القراءات للفظة الواحدة .
وانظر كتاب « تاريخ الأدب العربى » للمستشرق بلاشير ص ٩٣ — ٩٩ .

السابقة ما زالت باقية يشاهدها أبو ذؤيب فيعرفها ويصفها ، وذلك قوله[١] :

عرفتُ الدِّيارَ كرَقْمِ الدَّوا ةِ يَزْبُرُها الكاتبُ الحِمْيَرِيُّ
برَقْمٍ ووشْيٍ كما زُخْرِفَتْ بمِيشَمِها المُزْدهاةُ الهَدِيُّ
أَدَانَ وأَنْبــأَهُ الأَوَّلُــو نَ أَنَّ المُدَانَ المَلِيُّ الوَفِيُّ
فَنَمْنَمَ فى صُحُفٍ كالرِّيا طِ فيهنَّ إِرْثُ كِتابٍ مَحِيُّ

وفى أبيات لخُزَز بن لَوْذان السَّدُوسى يذكر فيها إنكاره لما كان يعتقده أهل زمانه آنذاك من التشاؤم والتفاؤل بالسوانح والبوارح وعقد التمائم لدفع الغوائل . ويقرّر فيها أن الدهر قُلَّب لا يدوم له خير ولا يتصل له شر . ولو أننا لم نقف عند هذه المعانى العقلية التى لا تصدر إلا من مثقف متعلم يثور على معتقدات أهل زمانه وأباطيلهم ، فإننا لا نستطيع إلا أن نقف عند آخر بيت منها ، إذ نكاد نفهم منه أن هذا الشاعر قد قرأ الكتب الدينية القديمة ، واشتق منها هذه المعانى التى يصورها ، وذلك قوله[٢] :

لا يَمْنَعَنَّكَ من بُغــا ءِ الخَيرِ تَعْقَادُ التَّمائمْ
ولقد غَدَوْتُ وكنتُ لا أَغْدُو على وَاقٍ وَحاتِمْ
فإذا الأَشائمُ كالأَيا مِنِ والأَيامنُ كالأَشائمْ
وكذاك لا خَيْرٌ ولا شَرٌّ على أَحَدٍ بدائمْ
قد خُطَّ ذلك فى الزُّبُو رِ الأَوَّلِيَّات القدائمْ[٣]

ويصور لنا لبيد صورة غريبة مركبة حين يصف لنا الأطلال ، وذلك فى قوله[٤]

أو مُذْهَبٌ جُدَدٌ على ألواحهــــنَّ الناطقُ المبروزُ والمختومُ

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ — ٦٥ .

(٢) لسان العرب (حتم) ، والمؤتلف والمختلف : ١٠٢ ، والخزانة ٣ : ١١ حيث يذكر أن خززاً جاهلى .

(٣) الزبور (بضم الزاى) = جمع زبر (بكسرها) ، وهى الكتب .

(٤) ديوانه (فينا ١٨٨٠) ق : ١٦ ، ب : ٣ .

فيشبه رسوم الديار بلوح مذهب عليه جُدّد ، وهى الطرائق التى فيه ، ويقول الطوسى شارح ديوان لبيد ، فيما ينقله عن ابن الأعرابى ، إن المذهب لوح ضُمّت إليه ألواح من جوانبه ، كانوا يضعون عليه الكتب — التى ترسل إلى الملوك — تعظيماً للملك ، لا تمسه إلا يده يأخذ ما شاء ويترك ما شاء . فكانت هذه الكتب الموضوعة إما مبروزة : أى منشورة ، وإما مختومة لم تنشر بعد ؛ وعبّر عن الكتاب المرسل بالناطق .

ومن الأبيات التى تشتمل على ذكر للكتابة ، وقد تدل على أن للشاعر معرفة بالكتابة والقراءة : بيتا مَعقل بن خُويلد ، اللذان يذكر فيهما ما يُفهَم منه أنه قرأ بيته الثانى فى كتاب فاقتبسه ، وذلك قوله [1] :

وإنّى كما قال مُمْلِى الكِتَا ... ب فى الرَّقِّ إذْ خَطّهُ الكاتبُ :
«يَرَى الشاهدُ الحاضرُ المُطْمَئِنُّ ... مِنَ الأَمر ما لا يَرى الغائبُ »

ونحن نكتفى بهذا القدر من الأبيات التى تشتمل على دلالة تشير إلى معرفة قائليها بصور متعددة من الكتابة والقراءة . وأما سائر الأبيات التى تشتمل على ذكر الكتابة وما يتصل بها فقد عرضناها فى مواطنها من الفصل السابق ولا حاجة بنا إلى إعادتها والاستكثار بها .

٦

تلك هى الأدلة العقلية الاستنباطية التى رأينا أنها قد تشير إلى معرفة الشعراء الجاهليين بالكتابة وإلى أن بعض هؤلاء الشعراء ربما استخدم الكتابة فى تقييد

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٧٠ .

بعض شعره . أما الأدلة الصريحة المباشرة فتتمثل فى هذه الروايات والنصوص التى لممنا نثارها ، وجمعنا متفرقها . وننظمها الآن فى سلك واحد لنرى أنها واضحة صريحة فى أن بعض الشعر الجاهلى كان يُقيَّد ، سواء أكان الذين يقيدونه هم الشعراء الجاهليين أنفسهم بخطّ يدهم أم كان هؤلاء الشعراء يستكتبون غيرهم لتقييد شعرهم .

وقد لحظنا — بعد أن جمعنا مادة هذا الفصل — فى هذه الروايات والنصوص أمرين ؛ الأول : أن أكثرها يشير إلى أن هذا الشعر المقيد بالكتابة إنما كان رسائل يبعث بها الشاعر ، ومع ذلك فقد عثرنا على روايات قليلة تشير إلى تقييد الشعر للحفظ . والثانى : أن هذه الرسائل الشعرية كانت شيئاً مألوفاً فى العصور الإسلامية ، وبين أيدينا أخبار ونصوص عنها فى زمنى عمر ومعاوية خاصةً . وحسبنا أن نشير إلى مواطنها [١] . ونحب أن نقدم بخبرين من صدر الإسلام ثم ننتقل إلى أخبار الجاهلية نفسها ونصوصها :

فقد اجتمع الأنصار فى مجلس [٢] ، فتذاكروا هجاء النجاشى إياهم ، فقالوا : من له ؟ فقال الحارث بن مُعاذ بن عَفراء : حسان له . . . فتوجه نحوه . والقوم كلهم مُعظِمٌ لذلك ، حتى دق عليه الباب . . . فلما دخل عليه كلمه . فقال : أين أنتم عن عبد الرحمن ؟ قال : إياك أردنا ، قد قاوله عبد الرحمن فلم يصنع شيئاً . فوثب ، وقال : كن وراء الباب ، واحفظ ما ألقى ... فدخل وهو يقول :

---

(١) نسب قريش : ١١٠ ، ٢٠٩ ، الفائق ١ : ٢٧٤ ، ٢ : ٢٦٦ ، الأغانى (دار الكتب) ٥ : ١٧ — ١٨ و (ساسى) ١٣ : ١٥١ و ١٤ : ١٢٣ ، الجاحظ ، المحاسن والأضداد ١٨٩ ، والحيوان ٢ : ٨٥ ، ابن رشيق ، العمدة (تصحيح النعسانى سنة ١٩٠٧) ١ : ١٧ — ١٨ ، ابن عبد ربه ، العقد ٦ : ١٣١ — ١٣٢ ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٢٢٣ — ٢٢٤ ، ديوان الهذليين ٢ : ٢٥٢ — ٢٥٥ ، ابن سعد ٣/١ : ٢٠٥ ، الآمدى ، المؤتلف والمختلف : ٦٣ ، البغدادى ، الخزانة ٢ : ٢٢٥ — ٢٢٦ و ٤ : ٥٩ — ٦٥ .

(٢) ديوان حسان (ط . النيل سنة ١٩٠٤) ص ١٣١—١٣٢ ، وانظر أيضاً البغدادى ، خزانة الأدب (سلفية) ٤ : ٥٥ — ٥٦ .

أَبَنِى الحِمَاسِ أَلَيْسَ مِنْكُمْ ماجِدٌ   إنَّ المُرُوءَةَ فى الحِمَاسِ قَلِيلُ

(ثمانية أبيات) ثم مكث طويلاً على الباب يقول : والله ما أبحرت ، ثم ألقى علىّ :

حارِبنَ كعبٍ ألا الأحلام تَزْجُرُكُم   عَنّى، وأنتُمْ من الجُوفِ الجَمَاخيرِ
لا عيبَ بالقوم من طُول ولا عِظَمٍ   جِسْمُ البغالِ وأحْلامُ العصافير
كأنَّهمْ قَصَب جُوْفٌ ، مَكاسِرُهُ   مُثَقَّبٌ فيــه أرواحُ الأعاصيرِ
دَعُوا التَّخاجُؤَ وامشُوا مِشْيةً سُجُحاً   إنَّ الرجالَ أُولُو عَصْبٍ وتذكيرِ
لا ينفعُ الطُّولُ مِن نُوْك القلوبِ ، ولا   يَهْدِى الإلٰهُ سبيلَ المعشرِ البُورِ
إنى سأنصرُ عِرْضى من سَراتِكمُ   إنَّ الحِماس نَسِىٌّ غيرُ مذكورِ
ألْفى أَبَاهُ وأَلْفى جَــدَّه حُبِسا   بمعزِلٍ عن مَعالِى المَجْدِ والخِيرِ

ثم قال للحارث : اكتبها صكوكا ، فألقها إلى غلمان الكتاب . قال الحارث : ففعلت . . »

وقد ذكر الزمخشرى أن طلحة رضى الله عنه أنشد قصيدة ، فما زال شانقاً ناقته حتى كُتبت له القصيدة [١] .

وحينما علم كعب بن زهير بإسلام أخيه بُجير كتب إليه [٢] :

ألا أَبلغا عنِّى بُجَيْراً رسالة   فهل لك فيما قُلْتَ بالخيفِ هل لكا؟
سُقِيتَ بكأْس عند آل محمد   فأنهلك المأمونُ منها وعلَّكا
فخالفتَ أسبابَ الهُدَى وتَبِعْتَهُ   على أىّ شىء ، ويْبَ غيرِك، دَلَّكا ؟

(١) الفائق ١ : ٦٧٧ .
(٢) الشعر والشعراء ١ : ٩١ ، وانظر أيضاً ابن هشام،السيرة ٤ : ١٤٤ – ١٤٥ .

فلما أتى الكتابُ بُجيراً كتب إلى كعب يقول [١] :

مَن مُبْلِغٌ كعْباً فهل لك فى التى ... تلومُ عليها باطلاً وهى أحْزَمُ
إلى الله-لاالعُزّى ولااللاتــوحْدَهُ ... فتنجو إذا كان النَّجاء وتسلمُ
لَدَى يومَ لا ينجو وليس بِمُفْلِتٍ ... من الناس إلا طاهر القلب مسلمُ
فدِينُ زهير ـ وهو لاشىء دينُهُ ـ ... ودِينُ أبى سُلْمَى علىَّ مُحَرَّمُ

وكان أبو سفيان بن حرب وأبىّ بن خلف الجمحىّ قد كتبا إلى الأنصار كتاباً يعاتبانهم فيه على إيوائهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبان منهم أن يُخلوا بينه وبين قريش . فكتب إليهما كعب بن مالك الأنصارى فى يوم أحُد بهذا الشعر ــ وهو أربعة عشر بيتاً ــ يرد عليهما فيه ، ويذكر أسماء النقباء [٢] :

أبْلِغْ أبَيًّا أنّه فال رَأيُهُ ... وحان غداة الشِّعب والحَيْنُ واقعُ
أبى الله ما منَّتْكَ نفسُك إنه ... بمرصاد أمر الناس راءٍ وسامعُ
وأبلغ أبا سفيان أن قد أضا لنا ... بأحمد نورٌ من هُدَى الله ساطعُ
فلا تَرْغَبَنْ فى حشد أمرٍ تريده ... وألِّبْ وجَمِّعْ كلَّ ما أنت جامع
ودُونَك فاعلم أنَّ نَقْضَ عهودنا ... أباهُ عليك الرَّهْطُ حين تبايعوا

ثم يذكر أسماء النقباء ، ويختم الأبيات الأربعة عشر بقوله :

أولاك نجومٌ لا يُغِبُّك منهُمُ ... عليك بنحسٍ فى دُجى الليل طالعُ

وذكروا أن الناس أصبحوا يوماً بمكة ، فرأوا مكتوباً على دار الندوة [٣] :

---

(١) ابن هشام : السيرة ٤ : ١٤٥ — ١٤٦ .
(٢) المعجم : ٢٧١ — ٢٧٤ ، والأبيات فى السيرة ٢ : ٨٧—٨٨ .
(٣) ابن سلام – طبقات فحول الشعراء : ١٩٦ — ١٩٧ السفاسير : مفردها سفير ، وهو السمار .

ألهى قُصَيًّا عن المجد الأساطيرُ ... وَرَشوَةٌ مثلَ ما تُرْشَى السَّفاسِير
وأكلُها اللَّحْم بَحْتاً لا خليطَ له ... وقولُها : رَحَلَتْ عِيرٌ ، أتَتْ عيرُ

وذكروا أن النعمان بن المنذر ولّى بعض الأعراب بابَ الحيرة مما يلى البرية ، فصاد الأعرابى ضَبًّا ، فبعث به إلى النعمان وكتب إليه[1] :

جَبَى المالَ عُمَّال الخراج وَجَبْوَتى ... مُقَطَّعَةُ الآذان صُفْرُ الشَّواكل
رَعَيْنَ الرُّبا والبقْلَ حتى كأنما ... كَساهُنَّ سُلطانٌ ثيابَ المراجل

ويبدو أن طبيعة حياة القصور فى بلاط النعمان وما يكثر فيها من دسّ ووقيعة ووشايات كانت تضطر الشعراء إلى أن يدفعوا عن أنفسهم هذه الدسائس ، فينجوا بأنفسهم مخافة الفتك بهم ، ثم يقولوا شعراً ويكتبوه ويرسلوه إلى النعمان . فمن ذلك تلك القصائد الكثيرة التى كان يقولها عدى بن زيد فى سجنه ويكتب بها إلى النعمان [2]. ومن ذلك أيضاً أن النابغة — بعد أن هرب من النعمان ومكث عند آل جفنة — أرسل إلى النعمان قصائد يعتذر إليه بها ، ويحلف له : أنه ما فرط منه ذنب [3] .

ومن ذلك أيضاً أن النعمان أمر الربيع بن زياد العبسى بالانصراف ، فلحق بأهله وكتب إلى النعمان أبياتاً يعتذر فيها ، وهى [4] :

لئنْ رَحَلْتُ جمالِى إنَّ لِى سَعَةً ... ما مثلُها سَعَةٌ عَرْضاً ولا طُولا

---

(١) الزجاجى : الأمالى : ١١٥ . الشواكل : الخواصر . ثياب المراجل : ثياب مخططة تعمل فى اليمن .

(٢) الأغانى ٢ : ١١٥ .

(٣) البغدادى : الخزانة ٢ : ٣٩٢ – ٣٩٣

(٤) الأغانى ١٦ : ٢٢ – ٢٣ وأمالى السيد المرتضى ١ : ١٩٢ .

بحيث لو وُزِنَت لخمٌ بِأَجْمَعِها لم يَعْدِلوا رِيشَةً من رِيش شَمْوِيلا
ترْعَى الروائم أحرارَ البقـــولِ بهَا لا مثلَ رَعْيكُمُ ملحاً وغَسْوِيلا
فَابْرُقْ بِـأَرضك يا نعمانُ مُتَّكِئاً مع النطَاسِيِّ يوماً وابن نَوْفِيــلا

فكتب إليه النعمان جواباً عن أبياته بأبيات أخرى هي قوله ·

شَرِّدْ بِرَحْلك عنى حيثُ شئتَ ولا تُكثِرْ علىَّ ودَعْ عَنك الأباطيلا
فقد ذُكِرتَ به والركب حامله ورداً يعلِّل أهل الشام والنيلا
فما انتفاؤُك منه بعد ما خرعت هوج المطى به إبراق شمليلا
قد قيل ذلك إن حقا وإنْ كَذِباً فما اعتذارك من قولٍ إذا قيلا
فالْحَقْ بحيث رأيتَ الأَرضَ واسعةً وانشر بها الطَّرْفَ إنْ عرضاً وإن طولا

وبلغ عمرو بن كلثوم أن النعمان بن المنذر يتوعده فدعا كاتباً من العرب فكتب إليه[١] :

ألا أبلغ النُّعْمانَ عنِّى رِسالةً فَمَدْحُكَ حَوْلِىٌّ وذَمُّكَ قَارحُ
متى تَلْقَنى فى تَغْلِبَ ابنةِ وائلٍ وأشياعِها ترْقَى إليك المسالحُ

وغضب الحارث بن مارية الغسانى على عبد العزى بن امرئ القيس الكلبي فتهدده ، فدعا عبد العزى ابنيه : شراحيل وعبد الحارث ، فكتب معهما إلى قومه[٢] :

جَزَانى-جَزَاهُ اللهُ شرَّ جزائهِ - جَزاء سِنِمَّارٍ وما كان ذا ذَنْبِ
سِوَى رَصِّهِ البُنيانَ عِشْرين حِجَّةً يعلّ عليه بالقراميدِ والسَّكْبِ

---

(١) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٨ .
(٢) الخزانة ١ : ٢٦٨ .

وهى أبيات[١] .

ولما طال سجن عدى بن زيد ، فى حبس النعمان ، كتب إلى أخيه أبىّ وهو مع كسرى بهذا الشعر[٢] :

أَبلِغْ أُبيا على نأْيِهِ وهل يَنْفَعُ المَرْءَ ما قد عَلِمْ
بأن أخاكَ شقِيقَ الفُؤا دِ كنتَ به واثِقاً ما سَلِمْ
لَدَى ملِكٍ مُوثَقٌ فى الحَديـــدِ إما بحقٍّ وإمــا ظُلِمْ
فلا أعْرِفَنْكَ كذاتِ الغُلا مِ ما لم تَجِدْ عارماً تَعْتَرِمْ[٣]
فأَرضَك أَرضَك إنْ تأْتِنا تَنَمْ نَوْمةً ليس فيها حُلُمْ

فكتب إليه أخوه أبىّ رسالة شعرية أخرى أبياتها عشرة نكتفى بذكر مطلعها :

إنْ يكن خانك الزمان فلا عا جِزُ باعٍ ولا أَلَفٌ ضعيفُ[٤]

ثم قام أبىّ إلى كسرى فكلمه فى أمره وعرّفه خبره ، فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه .

وكان أحمر بن جندل أسيراً ،فى يدى صَعصَعة بن محمود بن عمرو بن مرثد، فأطلقه ؛ فقال أخوه سلامة بن جندل هذه الأبيات وبعث بها إلى صعصعة[٥] :

سأَجْزِيك بالقِدِّ الذى قد فَكَكْتَه سأَجْزِيكَ ما أَبْلَيْتَنَا العَامَ صَعْصَعَا

---

(١) الأبيات فى الثعالبى ، ثمار القلوب : ١٠٩ .
(٢) الأغانى ٢ : ١١٨ — ١٢٠ .
(٣) العارم : الراضع ، يقول : إن لم تجد من يرضع منها درت هى فحلبت ثديها ، وربما رضعته ثم مجته من فيها .
(٤) الألف : الثقيل البطىء الكلام .
(٥) ديوان سلامة : ٢١ — ٢٢ ، وانظر البيان والتبيين ٣ : ٣١٨ مع اختلاف فى الألفاظ وترتيب الأبيات .

فإنْ يكُ محمودُ أباكَ فإننا وجدناكَ منسوباً إلى الخير أرْوَعا
سأُهْدِي ، وإن كُنَّا بِتَثْلِيثَ ، مِدْحَةً إليك ، وإن حلَّت بيوتُك لَعْلَعا
فإن شئتَ أهْدَيْنا ثَناء ومِدْحَـةً وإن شئتَ عَدَّينا لكم مائةً معا

وكان الأسرى ينتهزون كل فرصة ليكتبوا إلى قومهم يعلمونهم بحالهم ؛ فمن ذلك أنَّ رجلاً من بنى تميم كان أسيراً فكتب إلى قومه[١] :

حُلُّوا عن الناقة الحمراء أرْحُلَكُمْ والبازلَ الأصْهَبَ المعقول فاصطَنِعوا
إنَّ الذئاب قد اخضرَّتْ براثنُها والناسُ كُلُّهمْ بكْرٌ إذا شَبِعُوا

ومن ذلك أيضاً أن قيسبةَ بن كلثوم السكونى أسره بنو عامر بن عقيل ، فمرّ به أبو الطمحان القينىّ ، فوعده مائة ناقة إن هو بلغ قومه رسالة ، ثم كتب على مؤخر رحل أبى الطمحان[٢] :

بَلِّغا كِنْدَةَ المُلوكَ جميعًا حيث سارت بالأكرمين الجِمالُ
أنْ رِدُوا العَيْنَ بالخَميسِ عِجالًا واصْدُرُوا عنه والرَّوايا ثِقـالُ
هزئت جارتى وقالت عجيبًا إذ رأتنى فى جيدِيَ الأغلالُ
إن تَرَيْنى عارِى العِظامِ أَسِيرًا قد بَرانى تَضَعْضُعٌ واختلالُ
فلقد أقدُمُ الكتيبة بالسَّيْـ ـفِ عَلَىَّ السَّلاحُ والسِّرْبالُ

وقد مر بنا ذكر الكتابة على الرحل حين تحدثنا عن أدوات الكتابة ، وقلنا آنذاك إنه كان أمراً مألوفاً حين يضطر المرء وتُعجزه وسيلة أخرى للكتابة ، ومثَّلنا على ذلك بالكتابة على الرحل زمن الرسول والصحابة[٣] .

(١) القالى ، الأمالى ١ : ٧ .
(٢) الأغانى ١١ : ١٣١ .
(٣) انظر ابن سعد ٣/٢ : ١٥١ ، وتقييد العلم : ١٠٢ .

وكان أيضاً ممن كتب على الرحل من الشعراء الجاهليين : المرقش[١] ، وذلك أنه مرض فى الطريق — وكان معه عسيفٌ له من غفيلة ، ووليدة هى امرأة الغفلى — فسمع مرقش زوجَ الوليدة يقول لها : اتركيه فقد هلك سقماً وهلكنا معه ضراً وجوعاً . فجعلت الوليدة تبكى من ذلك ، فقال لها زوجها : أطيعينى ، وإلا فإنى تاركك وذاهب . . . فلما سمع مرقش قولَ الغفلى للوليدة كتب مرقش على مؤخرة الرحل هذه الأبيات :

يا صاحِبىَّ تَلَبَّثا لا تَعْجَلا   إن الرَّوَاحَ رَهِينُ ألاَّ تَفْعَلَا
فلعلَّ لُبْثَكُما يُفرِّطُ سَيِّئًا   أو يَسْبِقُ الإسْرَاعُ سَيْبًا مُقْبِلا
يا راكبًا إمَّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ   أَنَسَ بن سَعْدٍ إن لَقِيتَ ، وَحَرْمَلا
لِلهِ دَرُّكُما ودَرُّ أبيكما   إنْ أَفْلَتَ العَبْدَانِ حتَّى يُقْتَلا
مَن مُبْلِغُ الأَقوامِ أَنَّ مُرَقِّشًا   أَضْحَى على الأَصحابِ عِبْئًا مُثْقِلا
وكأنما تَرِدُ السِّباعُ بشِلْوِهِ   إذْ غابَ جمعُ بنى ضُبَيْعَةَ — مَنْهَلا

وهل أبلغ فى الدلالة على شيوع كتابة الشعر فى الرسائل من هذه الأبيات التى أرسلها الحارث بن كلدة إلى بنى عم له يعاتبهم لأنه كتب إليهم قبلها فلم يجيبوه ، قال[٢] :

ألا أَبْلِغْ مُعَاتَبَتِى وقَوْلِى   بَنِى عَمِّى فَقَدْ حَسُنَ العِتابُ
وَسَل : هلْ كانَ لِى ذنبٌ إليهمْ   وهُمْ منه — فَأَعْتِبَهُمْ — غِضابُ
كتبتُ إليهِمُ كُتُبًا مِرارًا   فلم يَرْجِعْ إلَىَّ لها جَوابُ

ومن أشهر الشعر الجاهلى الذى قيد بالكتابة على الصحف : قصيدة لقيط

---

(١) المفضليات : ٤٥٩ — ٤٦٠ ، وانظر الأغانى ٦ : ١٣٠ — ١٣١ .
(٢) حماسة ابن الشجرى : ٦٨ .

ابن يَعمر الأيادىّ التى أرسلها إلى قومه ينذرهم غزو كسرى إياهم ، وقد كتب قبل القصيدة مقدمةً شعرية من أربعة أبيات جعلها كالعنوان ، وهى[١] :

سَلَامٌ فى الصَّحِيفةِ من لَقِيطٍ   إلى مَنْ بالجزيرةِ مِنْ إيادِ
بأَنَّ اللَّيثَ كِسْرَى قَدْ أتاكُم   فلا يَشْغَلْكُمُ سُوقُ النِّقَادِ
أتاكُمْ مِنْهُمُ سِتُّون أَلْفًا   يُزَجُّون الكَتائبَ كالجَرَادِ
على حَنَقٍ أَتَيْنَكُمُ ، فهٰذا   أَوَانُ هَلاكِكُمْ كَهَلاكِ عادِ

أما القصيدة نفسها بعد هذه المقدمة الشعرية فهى العينية المشهورة التى يصف فيها الشاعر حال قومه وضعفهم وتخاذلهم وقوة عدوهم ، ثم يبين لهم مايجب أن يتحلى به من يولُّونه قيادَهم من صفات ، ومطلعها[٢] :

يا دَارَ عَمْرَةَ مِنْ مُحْتَلِّهَا الجَرَعا   هاجَتْ لِيَ الهَمَّ والأَحْزانَ والوَجَعَا

وهى خمسة وخمسون بيتاً يختمها بقوله :

هذا كِتابِى إليكُمْ والنَّذِيرُ لكُمْ   لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمَنْ سَمِعا

* * *

ذلك هو تقييد الشعر الجاهلى ، وقد جمعنا ما استطعنا أن نعثر عليه من أدلة عقلية ونقلية تسنده . وقد انتهت بنا كلُّها إلى ترجيح أنَّ الشعر الجاهلى كان يقيَّد فى صحف متفرقة لأغراض شتى . غير أن هذا كله مرحلة واحدة من مراحل بحثنا تقودنا إلى مرحلة تالية نتحدَّث فيها عن تدوين الشعر الجاهلى .

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ١٥٢ .

(٢) مختارات ابن الشجرى : القصيدة الأولى .

الفصل الثاني

تدوين الشعر الجاهلي

١

والحديث عن تدوين الشعر الجاهلي لا تستقيم أمامنا طرائقه إلاّ إذا عبّدْنا من حوله سبل الحديث عن نشأة التدوين العام وأوائل المؤلفات المدوّنة . وذلك لأنه لا تخصيص إلا بعد تعميم ؛ فإذا كان الأصل الكُلّيّ – وهو التدوين عامةً – ما زال غامض النشأة ، مشكوكاً في بداياته ، منكوراً قِدَمُه وسَبقه ، فإن الفرع الجزئي – وهو تدوين الشعر الجاهلي بخاصة – لا يصح أن يقوم وحده معلقاً في الفضاء ، وحوله سحب الشك والإنكار(١) .

فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن هذا التدوين العام : سواء أكان تفسيراً أم حديثاً أم لغة أم أدباً عامّاً – يشتمل في طياته على شعر جاهلي، بل على شعر جاهلي كثير – استبنّا، لهذين الأمرين مجتمعين ، ضرورة الإلمام بأطراف من نشأة التدوين على أن نوجز القول إيجازاً ، ونقتضبه اقتضاباً ، ونكتفي منه باللمحة

---

(١) وتفصيل ذلك أن المشهور المتداول أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيت تنقل بالرواية الشفهية جيلا بعد جيلٍ نحو مائة سنة أو تزيد ، حتّى قيض لها أن تدون . وأقدم زمن تحدده الروايات لتدوين الحديث يتصل بعهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز .

أما كتب اللغة والشعر والأدب عامة ، فإن المعروف أنها لم يبدأ تدوينها إلا في نهاية القرن الثاني الهجري ومطلع القرن الثالث . بل لقد وجد من ينكر هذا التاريخ المتأخر ، ويعد ما وصل إلينا من مدونات منسوبة إلى رجال نهاية القرن الثاني لم يكن إلا دروساً شفهية لم يدونوها وإنما دونها تلامذتهم أو تلامذة تلامذتهم ثم نسبوها إلى شيوخهم . وبذلك لا يبدأ التدوين ، فيما يرى هذا الفريق ، إلا في نهاية القرن الثالث الهجري . (انظر ما كتبه المستشرق هـ . ا . ر . جب في مجلة الأدب والفن – السنة الأولى ، الجزء الثاني ، سنة ١٩٤٣ ، بعنوان « بدء التأليف النثري » وبخاصة من ص ١٢ – ١٨).

الدالّة . فلسنا نقصد إلى هذا الحديث لذاته ، وإنما نتوسل به إلى موضوعنا الأصيل ، ونتخذه معبراً نجتازه إلى بحث تدوين الشعر الجاهلى .

• • •

وأول ما يعرض لنا ، قبل المضىّ فى البحث ، سؤالان تعتمد على إجابتهما خطواتنا التالية . الأول : هل كانت الصحف من الكثرة والشيوع بمنزلة يتيسر معها أن يوجد التدوين ؟ والثانى : ما هو المظهر اللغوى ، أو الصورة اللغوية للتدوين فى صدر الإسلام ؟

وتبدو لنا قيمة السؤال الأول فى أن التدوين والتأليف لا يقوم لهما وجود إلا إذا كانت الصحف التى تتخذ للكتابة من الوفرة والانتشار بمنزلة يتيسر معها ، لمن أراد ، أن يشترى منها ما يفى بحاجته ، فيستطيع أن يضم بعضها إلى بعض ، ويؤلف أجزاءها ، ويجعل من مجموعة هذه الصحف ديواناً مؤلفاً . أما إذا كانت الصحف مفقودة أو نادرة أو عزيزة مرتفعة الثمن لا يستطاع الحصول عليها إلا بشق النفس أو بعد أن يبذل فى شرائها من المال ما لا يطيقه إلا الموسرون الأثرياء ، فإن استخدام الصحف للكتابة فى هذه الحالة لا يكون إلا فى نطاق ضيق محدود لا يتيسر معه وجود التدوين والتأليف .

ويبدو لنا ، مما عثرنا عليه من روايات ونصوص ، أن الصحف كانت منذ الصدر الأول كثيرة شائعة ، وأنه كانت لها أسواق أو متاجر خاصة تباع فيها ، ويقوم على بيعها رجال يختصون بهذا الضرب من التجارة ويعرفون به ويلقبون بالوراقين . ويبدو لنا كذلك أن هذه الصحف كانت أثمانها زهيدة يستطيع الناس أن ينالوا منها ما يريدون من غير أن يتكلفوا من أمر مالهم رهقاً .

ومما يدل على هذا الضرب من التجارة ، وعلى توافر الصحف فى الأسواق ، وسهولة الحصول عليها ، ما روى من أن عليّ بن أبى طالب خطب الناس فى الكوفة ، فقال : من يشترى علماً بدرهم ؟ فاشترى الحارث الأعور صحفاً بدرهم ،

ثم جاء بها عليًّا ، فكتب له علماً كثيراً[١] . وما رُوى أيضاً عن أبى الشعثاء سُليم بن أسود قال : كنت أنا وعبد الله بن مرداس ، فرأينا صحيفة ، فيها قصص وقرآن ، مع رجل من النَّخَع ، قال : فواعدَنا المسجد، قال ، فقال عبد الله ابن مرداس: أشترى صحفاً بدرهم[٢] (يريد أن ينسخها فيها) . وعن إبراهيم أن علقمة اشترى ورقاً فأعطى أصحابه فكتبوه له[٣]. وعن وكيع عن مُحلّ قال ، قلت لإبراهيم: لا بد للناس من المصاحف . فقال : اشتر المداد والورق واستعِن (يعنى من يكتب له)[٤] .

وكان مطر بن دهمان مولى علىّ بن أبى طالب يُدعَى مَطراً الوراق[٥] ؛ ويروى أبو عبيدة أن المهلب قال لبنيه فى وصيته: يا بنّى لا تقوموا فى الأسواق إلا على زرّاد أو ورّاق[٦] .

ومما يؤيد ما ذكرناه من انتشار الصحف وبيعها فى الأسواق وسهولة الحصول عليها وجودُ طبقة من النساخ كان بعضهم يحترف النساخة ويؤجر عليها . وممن كان ينسخ فى الصحف : عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب[٧] ؛ ومالك ابن دينار الذى قال[٨]: دخل علىّ جابر بن زيد ، وأنا أكتب مصحفاً ، فقلت : كيف ترى صنعتى هذه يا أبا الشعثاء ؟ فقال : نعم الصنعة صنعتك ، ما أحسن هذا تنقل كتاب الله من ورقة إلى ورقة ، وآية إلى آية ، وكلمة إلى كلمة ، هذا الحلال لا بأس به . وكان سَلمة بن دينار الأعرج أيضاً من

---

(١) ابن سعد ٦ : ١١٦ ، وتقييد العلم : ٩٠ .
(٢) تقييد العلم : ٥٥ .
(٣) مصاحف السجستانى : ١٣٢
(٤) مصاحف السجستانى: ١٦٩ و ١٧٢ ، وانظر : ٩٠ (هامش: ٤) من هذا الكتاب .
(٥) المصدر السابق : ١٧٧ .
(٦) الحيوان ١ : ٥٢ .
(٧) مصاحف السجستانى : ٨٦ .
(٨) المصدر السابق : ١٣١ .

هؤلاء النساخين[١] ، وكان يأتيه الناس يكتبون حديثه ، وممن كان يأتيه ابن شهاب الزهرى ، فكان الزهرى يأخذ ورقة من ورق الأعرج فيكتب فيها الحديث ثم يقرأه ثم يمحوه مكانه ؛ وربما قام بها معه ، فيقرأها ثم يمحوها .

ومهما يكن عمل هؤلاء النساخ ، أو الموضوع الذى ينسخونه ، فإن الذى يعنينا من أمرهم أن قيام طبقة خاصة من النساخ دليل نضمه إلى الأدلة السابقة ، فتشير كلها إلى توافر الصحف فى الأسواق ، ووجود محال خاصة لتجارتها ، وقيام أفراد يختصون ببيعها وبالنسخ عليها ، واستطاعة الناس آنذاك شراءها[٢] .

٢

فإذا كان ذلك كذلك ، فما هو المظهر اللغوى ، أو الصورة اللغوية ، للتدوين فى هذا العصر المبكر ؟ ونقصد بذلك الألفاظ التى كانوا يطلقونها ليدلوا بها على مجموعة الصحف المدونة . فإذا كانوا قد عرفوا التدوين والتأليف فلا شك فى أنهم استخدموا ألفاظاً خاصة لمجموعة صحفهم تختلف عن ألفاظهم

---

(١) تقييد العلم : ٥٩ .

(٢) أما ما روى من قول عمرو بن ميمون : مازلت ألطف أنا وعمر بن عبد العزيز فى أمر الأمة حتى قلت له : يا أمير المؤمنين ، ما شأن هذه الطوامير التى يكتب فيها بالقلم الجليل يمد فيها وهى من بيت مال المسلمين ؛ فكتب فى الآفاق أن لا يكتبن فى طومار بقلم جليل ولا يمدن فيه . قال : فكانت كتبه إنما هى شبر أو نحوه (ابن سعد ٥ : ٢٩٥ – ٢٩٦) ؛ وما روى أيضاً من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر بن حزم : أما بعد ، فكتبت تذكر أن القراطيس التى قبلك قد نفدت وقد قطعنا لك دون ما كان يقطع لمن كان قبلك ، فأدق قلمك وقارب بين أسطرك واجمع حوائجك ؛ فإنى أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالا ينتفعون به . (المصدر السابق) ، فهذان النصان لا ينقضان ما قدمنا ، ولا يعنيان أن الصحف آنذاك كانت قليلة نادرة غالية الثمن – كما ذهب الأستاذ جب فى مقالته عن « بدء التأليف النثرى » ص : ٦ . فنص هاتين الروايتين واضح فى أن ذلك إنما هو « لطف فى أمر الأمة » وكره لأن « يخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به » . فرده إذن إلى القصد والاعتدال والتوفير وعدم الإسراف والتبذير .

الدالّة على الصحيفة المفردة . وسنعرض هنا بعض هذه الأبيات ليزداد اطمئناننا إلى معرفتهم بالتدوين آنذاك . فنها :

الدفتر : ذكر الصولى[١] أنه ما سُمع شيء فى اشتقاقه إلا أنه عربى فصيح. وقد ورد ذكره فى كلام لعمر بن الخطاب ، حينما جاءه بنو عدى يكلمونه فى أمر ترتيب عطائهم فى الديوان ، فقال[٢] : بخ بخ بنى عدى ، أردتم الأكل على ظهرى لأن أذهِبَ حسناتى لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوة ، وإن أطبق عليكم الدفتر . يعنى : ولو أن تكتبوا آخر الناس .

وقال ابن شهاب الزهرى[٣] : خرجنا مع الحجاج بن يوسف إلى الحج ، فلما كنا بالشجرة، قال : تبصّروا الهلال ، فإن فى بصرى عُهدة . فقال له نوفل ابن مساحق : أتدرى ممّ ذاك ؟ ذاك من كثرة نظرك فى الدفاتر .

وورد ذكر الدفتر كذلك فى الشعر الإسلامى المبكر . قال جندل بن المثنى الطهوى[٤] :

هَلَّا بحجر يا ربيعُ تُبْصِرُ قد قُضِيَ الدَّيْنُ وَجَفَّ الدَّفْتَرُ

الكراسة : وربما سموا مجموعة الصحف أو الأوراق كراسة ؛ قال إبراهيم[٥] وما فرغ علقمة (ابن قيس النخعى المتوفى سنة ٦٢) من مصحفه حتى بعث إلى أصحابه الكراسة والكراستين والورقة والورقتين .

وكان الضحاك يقول[٦] : لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف .

---

(١) أدب الكتاب : ١٠٨
(٢) ابن سعد ٣ / ١ : ٢١٢ .
(٣) تقييد العلم : ١٤٠ .
(٤) الصولى : أدب الكتاب : ١٠٨ .
(٥) مصاحف السجستانى : ١٦٩ .
(٦) تقييد العلم : ٤٧ .

الكتاب : وقد مر بنا ، فى حديثنا عن أدوات الكتابة ، بعض ما ورد فيه لفظ الكتاب من الشعر الجاهلى ، وقلنا آنذاك إن الكتاب مصدرٌ كالكتابة ، ولكنه لكثْرة استعماله ودورانه أصبح اسماً يطلق على الشيء المكتوب . وسنعرض بعض الروايات التى يرد فيها لفظ الكتاب بمعنى : الديوان أو الصحف المجموعة ، وبذلك يكون معناه آنذاك كمعناه عندنا الآن .

فقد جاء ابن قرَّة بكتاب إلى ابن مسعود، وقال[١] : وجدته بالشام فأعجبنى فجئتك به . قال : فنظر فيه ابن مسعود ، ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم .

وهذا عبيدة بن عمرو السلمانى المرادىّ (— ٧٢) دعا بكتبه عند موته ، فمحاها ، وقال[٢] : أخشى أن يليها أحد بعدى فيضعوها فى غير مواضعها . وكذلك وضع كُرَيب (— ٩٨) عند موسى بن عُقبة حمل بعير من كتب ابن عباس (— ٦٨)[٣] . وأوصى كذلك أبو قلابة عبدُ الله بن زيد (— ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧) أن تُدفع كتبه بعد موته إلى أيوب السختيانى إن كان حيًّا وإلا فلتحرق[٤] . وكذلك أمر شعبة بن الحجاج ابنه أن يغسل كتبه ويدفنها بعد موته[٥] .

ألفاظ أخرى : وكانوا كذلك يطلقون على الكتاب المجموع لفظ : المصحف — ويقصدون به مطلق الكتاب لا القرآن الكريم وحده . فمن ذلك ما ذكره بقية قال[٦] : دفع إلىّ بحير مصحفًا لخالد بن معدان (الكلاعى المتوفى سنة ١٠٤) فيه علمه أخذه منه مكتوباً فى تختين وله مثل دفتى المصحف وله عُرى وأزرار .

---

(١) تقييد العلم : ٥٣ .
(٢) ابن سعد ٦ : ٦٣ .
(٣) ابن سعد ٥ : ٢١٦ .
(٤) ابن سعد ٧/١ : ١٣٥ و ٧/٢ : ١٧ .
(٥) تقييد العلم : ٦٢ .
(٦) مصاحف السجستانى : ١٣٤ — ١٣٥ .

وثمة ألفاظ أخرى ذكرنا بعضها فى الفصل الأول ، وليس من هدفنا استقصاء هذا البحث ، وإنما أوردنا هذه اللمحة العامة لنبين أن الألفاظ التى كانوا يطلقونها على تلك المجموعات توضح — بصورتها اللغوية وبالأخبار التى وردت فيها — أن القوم قد عرفوا التدوين بالمعنى الاصطلاحى منذ عهد التابعين الأولين ومنْ قبلهم الصحابة أنفسهم . بل لقد أوردنا فى الفصل الأول ألفاظاً استعملت فى الجاهلية تدلّ على المجموع المدوّن وكانت خاصة بالكتب الدينية مثل : السفر والزبور ، وذكرنا هناك من أمثلة الكتب المدونة : التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى من العرب ، وأشرنا إلى مجلة لقمان مع سويد بن الصامت[١] ، وكتاب دانيال زمن عمر بن الخطاب ، وأن عمر بن الخطاب نفسه انتسخ كتاباً من كتب أهل الكتاب فى أديم فغضب من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

ويبدو أن هذه الكتب قد بلغت فى زمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب من الكثرة والانتشار ما كان يُخشى منه الضلالُ والانصرافُ إليها عن قراءة القرآن . قال القاسم بن محمد[٣] إن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر فى أيدى الناس كتب ، فاستنكرها وكرهها ، وقال : « أيها الناس ، إنه قد بلغنى أنه ظهرت فى أيديكم كتب ، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومُها ، فلا يُبقين أحدٌ عنده كتاباً إلا أتانى به ، فأرى فيه رأيى . قال : فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ، ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف ؛ فأتوه بكتبهم ، فأحرقها بالنار » .

وقد تعنى لفظة الكتب هنا : الكتب الدينية ؛ ولكنها قد تحتمل أيضاً سائر الكتب . فالخوف من الضلال والانصراف إلى هذه الكتب عن القرآن الكريم ينسحب على الكتب جميعها ؛ وقد تتضمن هذه الكتب بعض ما كان يدوّنه

---

(١) ابن هشام ، السيرة ٢ : ٦٨ .
(٢) تقييد العلم : ٥١ — ٥٢ .
(٣) تقييد العلم : ٥٢ .

الجاهليون من كتب حكمهم وعلمهم(١) ؛ وقد تتضمن كتبَ الأدب والأخبار الجاهلية التى تقص أخبار الجاهلية وأشعارها بما فيها من أيام ووقائع ومنازعات ، فتثير الخصومات ، وتحيي حمية الجاهلية ، مما لا تحمد عقباه . فإذا كانوا آنذاك ينهون عن رواية الشعر الجاهلى الذى يبعث هذه المنازعات ، فإن الأولى أن يحرقوا ويمزقوا تلك الكتب التى تشتمل على هذه الأخبار والأشعار .

ثم لا يكاد يمضى من القرن الأول نصفه حتى ترى قيام نادٍ فيه مكتبة عامة تحوى كتباً فى شتى الموضوعات ، يؤمها الناس فيقرءون ما يشاءون منها ؛ فقد كان « عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحىّ قد اتخذ بيتاً ، فجعل فيه شطرنجات ونرْدات وقِرْقات ، ودفاتر فيها من كل علم . وجعل فى الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يُلعَب به فلعب به مع بعضهم »(٢) .

وليس فى هذا ما يُستغرب فقد كان عدد القارئين الكاتبين كبيراً حتى إن الضحاك بن مزاحم — فى النصف الثانى من القرن الأول — كان فى مكتبه ثلاثة آلاف صبى ، وكان يطوف عليهم على حمار(٣) .

وهل أدل على هذه النهضة العلمية التأليفية المبكرة فى القرن الأول — من أن خالد بن يزيد بن معاوية — وقد كان خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً وجيد الرأى كثير الأدب — قد انصرف إلى العلم وتأليف الكتب وترجمة بعضها إلى العربية ، فكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء(٤) .

ومما يدل على وجود خزائن الكتب فى زمن الأمويين ، وعلى قِدَم حركة النقل والترجمة ، ما ذكره ابن جُلجل فى ترجمة ماسرجويه من أنه « كان يهودى

---

(١) انظر ص : ١٦٥ — ١٦٩ من هذا البحث .
(٢) الأغانى ٤ : ٢٥٣ .
(٣) ياقوت : إرشاد (ترجمة الضحاك بن مزاحم) .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٢٨ .

المذهب سريانياً ، وهو تولى فى الدولة المروانية تفسير كتاب أهرُن بن أعين القس إلى العربية ، ووجده عمر بن عبد العزيز فى خزائن الكتب ، فأمر بإخراجه ووضعه فى مُصلاه ، فاستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به ، فلما تمّ له فى ذلك أربعون صباحاً أخرجه إلى الناس وبثه فى أيديهم »[١] .

فمنذ مطلع القرن الأول الهجرى إذن حتى نهايته — فيما تتبعناه — كانت صحف الكتابة كثيرة ، موجودة فى الأسواق ، زهيدة الأثمان ، وبذلك وُجدت الكتب والمدونات . وكان عدد القارئين كثيراً ؛ ولم تكن هذه الكتب والمدونات خاصةً بالأفراد أو مقصورة على الاستعمال الشخصى ، بل لقد كانت تُعرَض فى مكتبات عامة كما رأينا . وكانت ، فوق هذا ، تباع فى الأسواق لمن أراد أن يشتريها ويقتنيها ؛ فقد ذكروا أن همام بن مُنبِّه كان يشترى الكتب لأخيه وهب ابن منبه (المتوفى سنة ١١٠ هـ) وكان وهب هذا مشهوراً بسعة اطلاعه وكثرة الكتب التى قرأها[٢] .

٣

غير أن هذا إجمال عام يقتضينا أن نشير إشارة موجزة إلى أنواع هذا التدوين ، وذكر الموضوعات التى كانوا يدونونها ، لنستبين الصلة بين التدوين العام وتدوين الشعر الجاهلى خاصة . ونقصد من هذا العرض السريع أن نوضح أن تدوين الحديث والتفسير واللغة والأنساب والشعر قد بدأ منذ عهد مبكر جداً ؛ وأنه ليس صحيحاً ما يُذكر من أن التدوين لم يعرفه العرب إلا فى آخر القرن الثانى ومطلع القرن الثالث .

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء : ٦١ .

(٢) تهذيب التهذيب ١١ : ٦٧ ، وابن سعد ٥ : ٣٩٥ .

الحديث والفقه :

لقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن بعض الصحابة ما يستفاد منه كراهةُ كتابة الحديث . وقد جمع الخطيب البغدادى هذه الأحاديث والآثار فى القسم الأول من كتابه « تقييد العلم »[١] . ولكنه فى القسم الثانى من كتابه جمع من الأحاديث والآثار ما يكشف عن سبب هذه الكراهة ، ثم يعقب عليها بما يُغنى عن إطالة الحديث ، قال[٢] : فقد ثبت أن كراهة من كره الكتاب من الصدر الأول ، إنما هى لئلا يُضاهى بكتاب الله غيرُه أو يُشتغَل عن القرآن بسواه ، ونُهى عن الكتب القديمة أن تُتخذ ، لأنه لا يُعرف حقها من باطلها ، وصحيحها من فاسدها ، مع أن القرآن كفى منها ، وصار مهيمناً عليها . ونُهى عن كتب العلم فى صدر الإسلام وجدته لقلة الفقهاء فى ذلك الوقت ، والمميزين بين الوحى وغيره ، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين ، ولا جالسوا العلماء العارفين ، فلم يُؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن ، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلامُ الرحمن » .

غير أنه قد وردت كذلك أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار عن صحابته رضى الله عنهم ، تحض على كتابة الحديث ، وقد جمعها الخطيب كذلك فى القسم الثالث من كتابه[٣] .

ولن نعرض لهذه الأحاديث والآثار بشىء ، ففيما صنعه الخطيب البغدادى ما يكفينا ويكفى غيرنا ممن يحب التوسع فى هذا الموضوع . ولكننا سنورد من الأخبار ما يدحض الزعم الشائع أن الحديث ظل أكثر من مائة سنة يتناقله

---

(١) من ص : ٢٩ إلى ص : ٤٩ .

(٢) ص : ٥٧ .

(٣) من ص : ٦٤ إلى ص : ١١٤

العلماء حفظاً دون أن يكتب. وسنبين أن الحديث قد دُوّن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وواصل الصحابة والتابعون تدوينه بعد ذلك ؛ وأن الحفظ والرواية الشفهية قد سارتا جنباً إلى جنب مع الكتابة والتدوين لا يفصل بينهما فاصل من الزمن ، ولا ينفي وجودُ إحداهما وجودَ الأخرى .

فعبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتب أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلمه وإذنه ، ولقد سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم – بعد أن أذن له بكتابة حديثه – : هل يكتب كل ما يسمع ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منى إلا حقٌّ[1] . وكان عبد الله بن عمرو يُسمّى صحيفته التى كتب عليها الأحاديث : الصادقة . قال مجاهد[2] : رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة ، فسألته عنها ، فقال : هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بينى وبينه فيها أحد . ويقال إن فيها ألفاً من الأحاديث[3] ، وقد بقيت هذه الصحيفة عند أهل بيته فكان حفيده عمرو بن شعيب يحدّث[4] منها . وقد ضمّن أحمد بن حنبل هذه الصحيفة مُسندَه فصانها من الضياع[5] .

وصحابى جليل آخر كتب الأحاديث الشريفة هو عبد الله بن عباس . ذكر موسى بن عقبة قال[6] : وضع عندنا كُرَيب حمل بعير من كتب ابن عباس ، فكان علىّ بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب ، كتب إليه : ابعث إلىّ بصحيفة كذا وكذا ، فينسخها ويبعث بها .

وصحابى جليل ثالث هو أنس بن مالك خادم رسول الله وملازمه فى بيته ليلاً

---

(١) مسند أحمد : حديث رقم ٦٥١٠ ورقم ٦٨٠٢ .
(٢) ابن سعد ٢/٧ : ١٨٩.
(٣) أسد الغابة ٣ : ٢٣٣ .
(٤) تهذيب التهذيب ٨ : ٤٨ – ٤٩ .
(٥) الدكتور محمد حميد الله : أقدم تأليف فى الحديث النبوى – مقالة فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق – الجزء الأول سنة ١٩٥٣ ص : ١٠٥ .
(٦) ابن سعد ٥ : ٢١٦ .

ونهاراً عشر سنوات . فقد روى هبيرة بن عبد الرحمن أن أنس مالك كان إذا حدّث فكثر عليه الناس ، جاء بمجالّ من كتب ، فألقاها ثم قال : هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضتها عليه[(١)] . وكان أنس يحض بنيه على كتابة الحديث[(٢)] .

وصحابي جليل رابع هو أبو هريرة أكثر الصحابة روايةً للحديث . قال ابنٌ لعمرو بن أمية الضمري[(٣)] : تحدثت عند أبي هريرة بحديث ، فأنكر ، فقلت : إني قد سمعته منك . فقال : إن كنتَ سمعته مني فهو مكتوب عندي . فأخذ بيدي إلى بيته ، فأرانا كتباً كثيرة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد ذلك الحديث . وقد كتب عبد العزيز بن مروان إلى كثير بن مرّة الحضرمي — وكان قد أدرك سبعين بدريّاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديثهم ، إلا حديث أبي هريرة فقد ذكر أنه عنده[(٤)] . وعن بشير بن نَهيك[(٥)] قال : أتيت أبا هريرة بكتابي الذي كتبته فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟ قال : نعم .

ومن كبار التابعين الذين دوّنوا الحديث : عروة بن الزبير (المتوفى سنة ٩٤) — وكانت عائشة خالته — قال هشام بن عروة بن الزبير[(٦)] : أحرق أبي يوم الحرّة كتب فقه كانت له ؛ فكان يقول بعد ذلك : لأنْ تكون عندي أحبّ إليّ من أن يكون لي مثل أهلي ومالي .

---

(١) تقييد العلم : ٩٥ .
(٢) ابن سعد ٧ : ١٤ .
(٣) الدكتور حميد الله — المقالة المذكورة سابقاً — نقلا من جامع بيان العلم ١ : ٧٤ .
(٤) ابن سعد ٧/٢ : ١٥٧ .
(٥) ابن سعد ٧ : ١٦٢ .
(٦) المصدر السابق ٥ : ١٣٣ .

وكان أول كتاب ظهر للشيعة : كتاب سُلَيم بن قيس الهلالى من أصحاب على"[١] .

وكان سعيد بن جُبير يسائل ابن عباس وابن عمر ، فيكتب ما يسمع منهما من الحديث[٢] . وكانت للحسن البصرى كتب حديث وفقه ، وكان بعض أصحابه يأخذها فينسخها ثم يردها[٣] .

وهمّام بن مُنبِّه جالس أبا هُريرة ، وسمع منه أحاديث ، وكتبها فى مجموعة سمّاها : الصحيفة الصحيحة ، كأنه سمّاها على مثال الصحيفة الصادقة التى كتبها عبد الله بن عمرو . والراجح أن هماماً كتبها فى حياة أبى هريرة قبل سنة ٥٨ هجرية . وقد نقل أحمد بن حنبل هذه الصحيفة كاملة فى مسنده[٤] ؛ ونقل البخارى عدداً كبيراً من أحاديثها فى أبواب شتى[٥] . وقد عُثر حديثاً على مخطوطتين من هذه الصحيفة ، ونشرت فى مجلة المجمع العلمى بدمشق[٦] .

فلم يبق عندنا شك إذن فى أن بعض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب منذ عهده ، واستمر الصحابة والتابعون فى كتابته ، وليس من الصواب فى شىء أن يُزْعم أن الحديث الشريف بقى مائة سنة أو تزيد يتناقله الناس حفظاً ، ولم يدونوه إلا فى منتصف القرن الثانى للهجرة .

التفسير :

ولا يختلف التفسير عما قدّمنا من أمر الحديث ، فسبيلهما فى ذلك واحدة . إذ يبدو لنا أن كتابة التفسير قد بدأت كذلك من عهد الصحابة ،

---

(١) ابن النديم : الفهرست : ٣٠٧ — ٣٠٨ .
(٢) ابن سعد ٦ : ١٧٩ — ١٨٠ .
(٣) المصدر السابق ٧/٢ : ١٧ .
(٤) ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٤ .
(٥) انظر مقالة الدكتور محمد حميد الله السابق ذكرها .
(٦) الجزء الثانى والجزء الثالث من المجلد الثامن والعشرين سنة ١٩٥٣ .

وتابعهم فيها التابعون ، حتى وصلت إلى ما نعرف من أوائل كتب التفسير التى بين أيدينا .

فقد مرّ بنا أن كتب عبد الله بن عباس بلغت حمل بعير ، وأن كُرَيباً وضعها عند موسى بن عقبة ، فكان علىّ بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب — كتب إلى موسى أن يبعث إليه بالصحيفة التى يريدها ، فينسخها علىّ ويردها إليه . وقد أوردنا هذا النص فى حديثنا عن الحديث النبوى ، غير أن كتب ابن عباس هذه لم تكن كلها فى الحديث ، وإنما كان بعضها فى التفسير ومايتصل به من أسباب النزول وأحكام القرآن : فقد كان لابن عباس كتاب فى التفسير رواه عند مجاهد[١] ، وعكرمة[٢] . وروى عكرمة كذلك كتاب ابن عباس فى نزول القرآن[٣] . أما كتاب ابن عباس فى أحكام القرآن فقد رواه عنه الكلبى[٤] .

ومن كتب التفسير أيضاً عُروة بن الزبير ، وقد مرّ بنا أن عروة كتب الحديث كذلك . ونجد فى سيرة ابن هشام[٥] وطبقات ابن سعد[٦] قطعة طويلة من تفسيره تتضمن ما يتصل بالآيات من حوادث تاريخية وأسباب النزول . وذلك أن ابن أبى هنيدة[٧] صاحب الوليد بن عبد الملك كتب إلى عروة بن الزبير يسأله عن قول الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾[٨] .

فكتب إلى عروة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان صالح قريشاً يوم

---

(١) الفهرست : ٥٠ .
(٢) الفهرست : ٥١ .
(٣) المصدر السابق : ٥٧ .
(٤) المصدر السابق : ٥٧ .
(٥) ج ٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .
(٦) ج ٨ ص ٦ — ٧ .
(٧) فى طبقات ابن سعد « هبيرة » مكان « ابن أبى هنيدة » .
(٨) سورة « الممتحنة » آية ١٠ .

الحديبية على أن يرد عليهم من جاء بغير إذن وليه ، فلما هاجر النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الإسلام ، أبى الله أن يُردَدْن إلى المشركين إذا هُنّ امتحن بمحنة الإسلام . . . (إلى آخر النص) .

وممن كتب التفسير من التابعين أيضاً : سعيد بن جبير ؛ فقد أرسل إليه عبد الملك بن مروان أن يكتب إليه بتفسير القرآن ، فكتب سعيد بن جبير إليه بتفسيره ، فحفظه عبد الملك عنده فى الديوان . وقد روى عطاء بن دينار هذا التفسير عن سعيد بن جبير ، ولكنه لم يسمعه منه ، وإنما وجد عطاء هذا التفسير فى الديوان ، فأخذه ، فأرسله عن سعيد بن جبير[1] . ومع أن عطاء لم يسمعه من سعيد بن جبير إلا أن غيره سمعه منه وكتبه عنه ، فقد كان عزْرَة يختلف إلى سعيد « معه التفسير فى كتاب ومعه الدواة يُغيِّر »[2] .

وقد كان كثير من التابعين يكتبون التفسير . وحسبنا أن نذكر كتابين من هذه الكتب : الأول ــ كتاب تفسير الحسن بن أبى الحسن البصرى[3] . والثانى ــ كتاب تفسير السُّدِّىّ ، هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبى كريمة المتوفى سنة ١٢٧ ، روى عن أنس وغيره من الصحابة . وقد جمع السدى تفسيره بطرق ثلاث : عن اثنين من التابعين عن ابن عباس ، وعن تابعى واحد عن ابن مسعود ، ومن رواية نفسه عن ناس من الصحابة ، وقد رأى تفسيره الإمام أحمد بن حنبل ، ونقل منه كثيراً الطبرى فى تفسيره[4] .

---

(١) ابن أبى حاتم ، الجرح والتعديل ١/٢ : ٣٣٢ .

(٢) ابن سعد ٦ : ١٨٦ .

(٣) الفهرست : ٥١ .

(٤) انظر تفسير الطبرى ط . دار المعارف ١ : ١٥٧ ــ ١٥٩ من كلام الشيخ أحمد محمد شاكر .

المغازى والسيرة :

وأول ما يلفتنا من المغازى والسيرة أنها كانت مادة من مواد المفسر يلجأ إليها حين يعرض لأسباب نزول الآية أو للأخبار والحوادث المتصلة بها ، كما مر بنا فى تفسير عروة بن الزبير لآية من سورة الممتحنة إذ فصّل القول فى الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش يوم الحديبية ؛ وكذلك كان دأب المفسرين.

ولكن عروة كانت له كتابات تاريخية خالصة ، حفظتها لنا بعض كتب التاريخ التى وصلت إلينا . فقد كان عبد الملك بن مروان يرسل إليه يسأله عن بعض الحوادث التاريخية ، فكتب إليه يسأله مرة عن هجرة الحبشة[١] ، ومرة أخرى عن وقعة بدر وخروج أبى سفيان[٢] ، ومرة ثالثة عن خالد بن الوليد وفتح مكة[٣] . وكان عروة بن الزبير فى كل مرة يكتب إلىّ عبد الملك مجيباً له عما يسأله ؛ فكان مما كتبه مثلا « أما بعد ، فإنك كتبت إلىّ فى أبى سفيان ومخرجه ، تسألنى كيف كان شأنه ؟ كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام فى قريب من سبعين راكباً ، من قبائل قريش كلها ، كانوا تجاراً بالشام . فأقبلوا جميعاً معهم أموالهم وتجارتهم ؛ فذُكِروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك ، فقتلت قتلى . . » ثم يمضى يفصل القول تفصيلاً فى مقدمات وقعة بدر مما نقله الطبرى فى تاريخه . ولذلك قيل إن عروة أول من صنف فى المغازى[٤] .

ولم يكن عروة وحده يدون هذه المغازى ، بل كان يدونها غيره من معاصريه ، مثل أبان ابن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (توفى أبان سنة ١٠٥) ، وقد أخذ

---

(١) الطبرى : تاريخ ١ : ١١٨٠.

(٢) المصدر السابق ١ : ١٢٨٤ .

(٣) المصدر السابق ١ : ١٦٣٤ .

(٤) حاجى خليفة : كشف الظنون ٥ : ٦٤٦ .

هذه المغازى عن أبان : المغيرةُ بن عبد الرحمن ، وكانت كثيراً ما تُقرأ عليه[١].

ووهب بن منبه كتب كذلك المغازى والسيرة[٢]. وقد وجد بيكر C.N. Becker بين مجموعة أوراق بردى Shott-Reinhardt المحفوظة فى هيدلبرج — مجلداً يرجّح أنه يحوى قطعة من كتاب المغازى لوهب بن منبه ؛ وتاريخ نسخ هذه القطعة سنة ٢٢٨ ، فهى بعد وفاة وهب بنحو قرن واحد[٣] .

وجاء بعد ذلك ابن شهاب الزهرى (المتوفى سنة ١٢٤) ، وقد طلب منه خالد بن عبد الله القسرى أن يكتب له السيرة[٤] ، فقال له ابن شهاب : فإنه يمرّ بى الشىء من سيرة على بن أبى طالب ، فأذكره ؟ فقال له خالد : لا ، إلا أن تراه فى قعر الجحيم !! وللزهرى كتاب عن مشاهد النبى صلى الله عليه وسلم رواه عنه يونس بن يزيد[٥] ، لا أدرى أهو نفسه كتاب السيرة الذى كتبه لخالد القسرى ، أم أنه كتاب غيره .

ثم خلف بعد هؤلاء موسى بن عقبة ومحمد بن إسحق صاحب السيرة .

٤

لقد كانت هذه الموضوعات الثلاثة : الحديث ، والتفسير ، والسير والمغازى — إسلامية فى مادتها . وقد دلت بما لا يقبل الشك على أن تدوين الموضوعات فى كتب — مهما يكن حجمها — قد بدأ فى عهد مبكر جداً : منذ عهد الرسول والصحابة ، وأن هذه الموضوعات لم تُنقل بالرواية الشفهية قرناً أو يزيد حتى

---

(١) ابن سعد ٥ : ١٥٦ .

(٢) حاجى خليفة رقم ١٢٤٦٤ .

(٣) يوسف هورروفتس : المغازى الأولى ومؤلفوها — ترجمة حسين نصار — ص : ٣٤ — ٣٥

(٤) الأغانى ١٩ : ٥٩ .

(٥) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : ٨٨ .

دونت ، كما ذهب إليه الكثيرون .

أما تدوين ما يتصل بالجاهلية من أخبار وأنساب وأشعار ، فسنوردها مجتمعة لأنها متداخلة متشابكة فى تدوينها منذ بدأ هذا التدوين . وكان العالِم الذى يدوّن الجاهلية ، أو يرويها ، يذكر الخبر ثم يستشهد عليه بالشعر ويفصل القول فى أنساب من يرد ذكرهم فى حديثه ، أو يذكر الشعر ثم يورد من الأخبار والأنساب ما يفسره ويتصل به .

وأول ما يبدو لنا فى هذا الموضوع أن الذين دونوا تلك الموضوعات الإسلامية التى ذكرناها ، كانوا أيضاً يعرضون لذكر الجاهلية : فى كتب المغازى والسير كانوا يعرضون لذكر العرب الجاهليين والأنبياء السابقين ويفصّلون القول فى نسب الرسول الكريم وأخبار مكة وقريش ومن يتصل بهما من أفراد وقبائل . وكانت هذه الكتب التاريخية فى السيرة والمغازى تشتمل على كثير من الشعر الذى قاله الشعراء الجاهليون الخالصون والشعراء الجاهليون المخضرمون . وقد كان كُتّاب السيرة والمغازى — فى الصدر الأول — يحفظون كثيراً من الشعر الجاهلى ويستخدمونه فى الاستشهاد على ما يكتبون أو يتحدثون . قال أبو الزناد عن أبان بن عثمان ابن عفان — وقد مر بنا أنه من كتاب السيرة والمغازى — إنه قلما كان فى صحبته دون أن يتمثل بأشعار شاعر المدينة اليهودى الربيع بن أبى الحقيق ، وذلك قوله[1] :

سَئِمْتُ وأمْسَيْتُ رهنَ القِرا ... شِ من جُرْم قومِى ومن مَغْرَمِ
ومن سَفَهِ الرأيِ بعدَ النُّهَى ... وعيب الرَّشادِ ولم يُفْهَمِ
فلو أنَّ قومِى أطاعوا الحَلِيـ ... ـمَ لم يتَعَدَّوْا ولم يُظْلَمِ
ولكنَّ قومِى أطاعوا الغُوَا ... ةَ حتى تَعَكَّسَ أهلُ الدَّمِ[2]

(١) الأغانى ٢١ : ٩٢ ، ونسبها المرزبانى فى معجم الشعراء (ص : ٣٥٢) لكنانة بن أبى الحقيق .

(٢) فى معجم الشعراء : ٣٥٢ : « تلفظ أهل الدم » مكان « تعكس »

فَأَوْدَى السَّفِيهُ بِرَأْيِ الحَلِيـ ـمِ وانتشر الأَمْرُ لم يُبْرَمِ

وذكروا أن عروة بن الزبير – وهو أيضاً ممن كتب السير والمغازى كان من أروى الناس للشعر[١] .

وكذلك كان المفسرون يعتمدون على الشعر الجاهلى وكلام العرب فى تفسير ألفاظ القرآن الكريم وفهم معانيه : فقد رُوِىَ عن عمر بن الخطاب أنه قال على المنبر[٢] : ما تقولون فيها ؟ (يقصد فى قوله تعالى « أو يأخذهمْ على تخوف ») ، فسكتوا . فقام شيخ من هُذَيل ، فقال : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص . فقال : هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال : نعم ، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تَامِكًا قَرِدًا كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[٣]

فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم .

وُيرْوَى قريب من هذا عن ابن عباس ، فقد ذكر أبو بكر الأنبارى[٤] قال : أتى أعرابى إلى ابن عباس فقال :

تَخَوَّفنى مالِى أَخٌ لِىَ ظالمٌ فلا تَخْذُلَنِّى اليومَ يا خَيْرَ مَنْ بَقِى

فقال ابن عباس : تخوفك أى تنقصك ؟ قال : نعم . قال : الله أكبر ! « أو يأخذهم على تخوف » أى تنقص من خيارهم .

وقد كان ابن عباس حريصاً على الشعر الجاهلى يحث الناس على تعلمه

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٩ : ١٠١ .
(٢) تفسير البيضاوى – سورة النحل آية : ٤٦ .
(٣) التامك : السنام . القرد : الكثير القردان أو السمين . السفن : حجر ينحت به .
(٤) القالى ، الأمالى ٢ : ١١٢ .

وطلبه لتفسير القرآن ، فمما قاله فى ذلك[١] : «وإذا سألتم عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب» .

وقد حاجَّ ابنُ عباس عمرَو بنَ العاص فى مجلس معاوية رضى الله عنهم فى آية[٢] ، فقال عمرو : تغرب فى عين حامية ؛ وقال ابن عباس : حمئة . فلما خرج إذا رجل من الأزد قال له : بلغنى ما بينكما ، ولو كنتُ عندك أفدتك بأبيات قالها تُبَّع :

فرأى مَغَارَ الشَّمْس عند غُروبها   فى عين ذى خُلُبٍ وَثَـأْطٍ حرْمَدِ[٣]

فقال ابن عباس : اكتبها يا غلام .

وقال عثمان بن أبى العاصى الثقفى لبنيه : «يا بنى ، إنى قد أمجدتكم فى أمهاتكم ، وأحسنت مهنةَ أموالكم ، وإنى ما جلستُ فى ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه . والناكح مُغترس ، فلينظر امرؤٌ منكم حيث يضع غَرْسه ؛ والعرق السوء قلما يُنجب ولو بعد حين» . فقال ابن عباس : يا غلام اكتب لنا هذا الحديث[٤] .

وقال ابن عباس كذلك[٥] : ما كنت لأدرى ما «فاطر السموات والأرض» حتى احتكم إلىَّ أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها — أى ابتدأت حفرها .

وقد ذكر عكرمة[٦] أنه ما سمع ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل

---

(١) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٠٢ .
(٢) الزمخشرى ، الفائق ١ : ٢٩٧ .
(٣) الخلب : الطين اللزج . الثأط : الحمأة . الحرمد : الأسود .
(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٧ .
(٥) الفائق ٢ : ٢٨٣ .
(٦) التبريزى ، شرح الحماسة : ١ — ٢ .

إلا نزع فيها بيتاً من الشعر ، وكان يقول : إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه فى الشعر ، فإنه ديوان العرب .

وكذلك كان ابن مسعود يُعنَى بالعربية والشعر ، وقد كان يسأل فى ذلك زرّ بن حُبيش — وكان أعرب الناس[١] .

وكذلك كان ابن شهاب الزهرى ؛ فقد قال ابن أبى الزناد[٢] : كنا لا نكتب إلا سُنَّة ، وكان الزهرى يكتب كل شىء ، فلما احتيج إليه عرفتُ أنه أوعى الناس . وقد كان الزهرى يضرب فى كل فن بسهم وافر ، وقد كتب فى الأنساب كتاباً لم يُتمه ، قال الزهرى[٣] : قال لى خالد بن عبد الله القسرى : اكتب لى النسب . فبدأت بنسب مضر ، وما أتممته ، فقال: اقطعه ، قطعه الله مع أصولهم. وكان علمه بالأنساب والأخبار مضرب المثل ؛ قال الليث[٤] : «..وإن حدّثَ عن العرب والأنساب قلت : لا يُحسن إلا هذا . . » وكان راوية للشعر يحفظ الكثير منه[٥] ، حتى كان الخلفاء الأمويون يرسلون إليه يسألونه عن الشعر والشعراء[٦] .

وليس أدل على كثرة ما ألفه الزهرى فى شتى الموضوعات من أنه حينما قتل الوليد ابن يزيد سنة ١٢٦هـ حُملت الدفاتر على الدواب من خزائنه ، وكانت من علم الزهرى[٧] . وكان إذا جلس فى بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شىء من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوماً[٨] : والله لهذه الكتب أشدّ علىّ من ثلاث ضرائر .

* * *

(١) ابن سعد ٦ : ٧١ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٩٠ .
(٣) الأغانى ١٩ : ٥٩ .
(٤) أبو نعيم ، حلية الأولياء ٣ : ٣٦٠ .
(٥) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٢٣ — ٢٦ .
(٦) الأغانى ٤ : ٢٤٨ .
(٧) ابن سعد ٢ : ١٣٦ .
(٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١ : ٥٧١ .

فقد كان إذن هؤلاء المدونون للحديث والتفسير والمغازى يضمّنون مدوناتهم شيئاً من أخبار الجاهلية وأشعارها وأنسابها ، وربما أفردوا النسب بالتأليف . فهل دونت العرب — تدويناً مستقلاً قائماً بنفسه — ما يتصل بالجاهلية من أخبار وأشعار وأنساب ، كما دونت الحديث والتفسير والسيرة والمغازى ، أو أن تدوين أخبار الجاهلية وأشعارها وأنسابها لم يبدأ إلا منذ نهاية القرن الثانى على أيدى العلماء الرواة المشهورين ؟

٥

وسنبدأ بذكر عالمين من علماء الشعر الجاهلى متعاصرين ، هما : أبو عمرو ابن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤) ، وحماد الراوية (المتوفى سنة ١٥٦) ، وسنتحدث عنهما هنا فى أمر لا نعدوه : هو أن نكشف عن أن عنايتهما بالشعر الجاهلى لم تكن مقصورة على دروس شفهية يتلقاها تلامذتهما من غير تدوين ، وإنما كانا ، وغيرهما من العلماء ، يثلان إلى دواوين ومجموعات مكتوبة توارثاها عمن قبلهما ، وذلك فضلاً عما كانا هما يقيدانه ويدونانه مما يسمعان من الأعراب والرواة ، فيضيفانه إلى ما بين أيديهما من الدواوين زيادة فى الرواية ، أو شرحاً وتفسيراً واستشهاداً على بعض المشكل من المعانى أو الغريب من الألفاظ .

أما أبو عمرو بن العلاء فقد بلغت عنايته بالشعر الجاهلى مبلغاً كبيراً حتى قال الأصمعى[1] : جلست إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامى. وقال أبو عمرو مرة : لقد كثر هذا المحدَثُ وحسُن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته !! يعنى شعر جرير والفرزدق وأشباههما !

وقد كانت عناية أبى عمرو بالكتابة والتدوين لا تقل عن عنايته بالحفظ

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٢١ .

والرواية ؛ فقد كان يرسل إلى الحارث بن خالد بن العاصى — الشاعر الغزل المشهور — أخاه معاذ بن العلاء ومعه كتاب فيه مسائل يسأله عنها[١] ؛ وكان كذلك يكتب إلى عكرمة بن خالد — محدث جليل من وجوه التابعين ، وهو أخو الحارث الشاعر — يسأله كما يسأل أخاه[٢] .

وكان أبو عمرو يذهب إلى عمرو بن دينار ومعه كتابه ، فكان يقيد فى كتابه مما يسمعه ما لم يكن فيه[٣]. وقال شعبة[٤] : كنت أجتمع أنا وأبو عمرو ابن العلاء عند أبى نوفل بن أبى عقرب فأسأله عن الحديث خاصة ، ويسأله أبو عمرو عن الشعر واللغة خاصة ، فلا أكتب شيئاً مما يسأله عنه أبو عمرو ، ولا يكتب أبو عمرو شيئاً مما أسأله أنا عنه .

وكان من أثر شغفه بالتدوين أن كتبه « ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرّأ فأحرقها كلها ؛ فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية»[٥].

* * *

وأما حماد الراوية فالأخبار التى جمعناها عنه تدل دلالة صريحة على أنه كانت عنده كتب فيها أخبار الجاهلية وأنسابها وأشعارها ، بعضها كتبه بنفسه ، وبعضها كُتب من قبله فقرأه واستفاد منه فى تدوين كتبه .

---

(١) الأغانى ٣ : ٣١٢ ، وفيه أن الحارث كان آنذاك والى مكة أى سنة ٧٥ هـ . وقد ذكروا فى سنة ولادة أبى عمرو أنها ٧٠ هـ ، وهذا لا يعقل ، إذ يكون أبو عمرو عالماً باللغة والشعر ويسأل عنهما والى مكة وعمره خمس سنوات . ولكن فى سنة ولادة أبى عمرو خلافاً ، قال ابن الجزرى فى طبقات القراء : ولد سنة ٦٨ ، وقيل سنة ٧٠ ، وقيل سنة ٦٥ ، وقيل سنة ٥٥ فإذا صح ما ذكرناه عن مكاتبته للحارث سنة ٧٥ كان أقرب إلى المعقول أن تكون سنة ولادته أقدم ما ذكر ابن الجزرى أى سنة ٥٥ .

(٢) أبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين ، ورقة : ٢٤ .

(٣) ابن سعد ٧ / ٢ : ٤٢ .

(٤) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٠٤ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ٣٢١ .

قال حماد الراوية[١] : « أرسل الوليد بن يزيد إلىّ بمائتى دينار ، وأمر يوسف بن عمر بحملى إليه على البريد . قال ، فقلت : لا يسألنى إلا عن طرَفيه : قُرَيش وثَقيف ؛ فنظرت فى كتابىْ قُرَيش وثَقيف . فلما قدمت عليه سألنى عن أشعار بَلِىّ ، فأنشدته منها ما استحسنه ، ثم قال : أنشدنى فى الشراب — وعنده وجوه من أهل الشام — فأنشدته . . »

وقد كان أمرُ كتب حماد المشتملة على شعر الجاهلية معروفًا مشهوراً ، حتى إنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك — حين أراد أن يجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها — استعار من حماد ومن جناد بن واصل الكوفى ماعندهما من الكتب والدواوين فدونها عنده ، ثم ردّ إليهما كتبهما[٢] .

ومما يُروى لنا عن حماد أنه كان فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيامَ الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ فى العلم ما بلغ[٣] .

وقد رأى أبو حاتم السجستانى بعض كتب حماد فى الشعر الجاهلى ، وكان يرجع إليها ، ويُثبت ما يجده فيها زائداً على ما جمع من الشعر ، وإن كان نصّ على أن هذه الزيادات هى من الشعر المصنوع[٤] .

ومما يؤيد ما ورد عن كتاب شعر الأنصار الذى وجده حماد أن شعر الأنصار

---

(١) الأغانى ٦ : ٩٤ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست : ١٣٤ ، وقد قال ابن النديم عن جناد بن واصل الكوفى (ص ١٣٥) إنه كان أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها .

(٣) الأغانى ٦ : ٨٧ .

(٤) انظر مختارات ابن الشجرى : ١٢٣ و ١٢٧ و ١٣٦ . ولذلك كان عجيباً أن يقول ابن النديم « ولم ير لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس ، وصنفت الكتب بعده !! » فلعل ابن النديم لم يصله شىء من كتبه فألقى هذا القول العام إلقاء .

قد كُتب منذ زمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ؛ وبقيت الأنصار بعد ذلك تجدّده كلما خافت بلاه . وتفصيل ذلك أن عبد الله بن الزبعرى السهمىّ وضرار بن الخطاب الفهرىّ أنشدا حسان بن ثابت شعراً مما كانا قالاه قبل الإسلام — وكان عمر قد نهى عن إنشاد ذلك الضرب من الشعر لئلا تتجدد الضغائن — ففار حسان حتى صار كالمرْجل غضباً ، ثم دخل على عمر بن الخطاب وقص عليه قصتهما ، فأرسل إليهما عمر رسولاً فردهما إليه ، ثم دعا لهما بحسان — وعمر فى جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال لحسان : أنشدْهما مما قلتَ لهما . فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما ، فوقف . فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم . فقال له : أنشداك فى الخلاء وأنشدتّهما فى الملأ . وقال لهما عمر : إن شئتما فأقيما وإن شئتما فانصرفا . وقال لمن حضره : إنى قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ، فأما إذْ أبَوْا فاكتبوه واحتفظوا به . فدوّنوا ذلك عندهم . قال خلاد بن محمد : فأدركته والله وإن الأنصار لتجدّده عندها إذا خافت بلاه[1] .

• • •

ولم يكن الوليد بن يزيد — الذى جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها من كتب حماد وجناد — هو وحده الذى بذل مثل هذه العناية ؛ بل كان من سبقه من خلفاء بنى أمية يفعلون كما فعل . فقد كان للوليد بن عبد الملك كاتب خاص نصبه لكتابة المصاحف والشعر والأخبار ، وهو خالد بن الهياج[2] .

وقد مر بنا أن عبد الملك بن مروان أرسل إلى سعيد بن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن ، فكتبه ، فحفظه عبد الملك عنده فى الديوان . وكان

---

(١) الأغانى ٤ : ١٤٠ — ١٤١ .

(٢) الفهرست : ٩ — ١٠ وقد ذكر ابن النديم خالداً هذا فى موضع آخر من كتابه (ص : ٦) وقال عنه إنه صاحب على رضى الله عنه ، فلعله هو نفسه عاش حتى كتب للوليد !

عبد الملك يُعنَى بأخبار العرب وأشعارها ، وفعل فيها ما فعل بالتفسير ، وأمر من جمع له المعلقات[١] .

أما معاوية بن أبي سفيان فقد كانت له ساعات من كل يوم يقعد فيها فيُحضِر غلمانه « الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون ، وقد وُكلوا بحفظها وقراءتها[٢] . وكانت من جملة تلك الأحاديث : أحاديث عبيد بن شَرِيَّة عن وقائع العرب وأخبارها وأشعارها ، فكان معاوية يأمر أهل ديوانه وكتابه أن يوقعوا هذه الأحاديث ويدونوها فى الكتب وينسبوها إلى عبيد بن شريَّة[٣] .

وقد ذكر ابن سلام[٤] فى معرض حديثه عن قصيدة أبى طالب التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوجهه   رَبِيعُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ للأَراملِ

أنه رأى هذه القصيدة مُدوّنة فى « كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة » . ولا نعرف متى كتب ابن سلام كتابه حتى نعرف متى كتب يوسف بن سعد هذه القصيدة فى كتابه قبل مائة سنة من كتاب ابن سلام. غير أن يوسف بن سعد هو : يوسف بن سعد الجمحيّ ، مولاهم ، أبو يعقوب ، روى عن عمر وعلى وزيد بن ثابت[٥] . فهو إذن من كبار التابعين ، وبذلك نرجح أنه كتب كتابه هذا وفيه قصيدة أبى طالب ما بين منتصف القرن الأول ونهايته .

ولم يكن سماح عمر بن الخطاب بتدوين الشعر الجاهلى بدعاً من الأمر ،

---

(١) البغدادى ، الخزانة ١ : ١٢٤ .
(٢) المسعودى ، مروج الذهب ٣ : ٤٠ - ٤١ .
(٣) أخبار عبيد بن شرية : ١١٣ ، والفهرست : ١٣٢ .
(٤) طبقات فحول الشعراء : ٢٠٤ .
(٥) انظر ترجمته فى : البخارى : التاريخ الكبير ٦ : ٣٧٣ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ١١ : ٤١٣ .

فقد كان بعض الصحابة يعنون كذلك بتدوين هذا الشعر . وقد مر بنا أن طلحة رضى الله عنه أنشد قصيدة فما زال شانقاً ناقته حتى كتبت له[١] . فهو إذن يدون بعض الشعر ويجمعه ويحفظه .

ومما يتصل بهذا أيضاً أن دَغْفلاً النسابة — وهو جاهلى أدرك الإسلام — كان يكتب الأنساب ويدونها فى الصحف ويبدو لنا ذلك واضحاً من قول الفرزدق[٢] :

أَوْصَى عَشِيَّةَ حِينَ فَارَقَ رَهْطَهُ عِندَ الشَّهادَةِ فى الصَّحِيفةِ دَغْفَلُ
أَنَّ ابنَ ضَبةَ كان خيرٌ والِدًا وأَتَمُّ فى حَسَبِ الكِرام وأَفْضَلُ

وفى هذه القصيدة نفسها يعدّد الفرزدق الشعراء الجاهليين ، ويفخر أنه قد ورث عنهم الشاعرية المتدفقة الفحلة، ولكن فى ألفاظه ما قد يُفْهَم منه أنه كانت بين يديه مجموعات شعرية لشعراء جاهليين أو نسخ من دواوينهم ، وذلك قوله :

والجَعْفَرِىُّ وكان بِشْرٌ قَبْلَهُ لِى من قصائدِه الكتابُ المُجْمَلُ

وبعد أبيات يقول :

دَفَعوا إلىَّ كتابَهُنَّ وَصِيَّةً فَوَرِثْتُهُنَّ كأَنَّهُنَّ الجَنْدَلُ

ونحب هنا أن نذكّر بما كتبناه فى حديثنا عن تقييد الشعر الجاهلى من أمر هذه القصائد التى كان يكتبها : النابغة الذبيانى ، وعدى بن زيد العبادى ،

---

(١) الزمخشرى ، الفائق ١ : ٦٧٧ .
(٢) النقائض ١ : ١٨٩ .

والربيع بن زياد العبسى وغيرهم كثيرون ، ويرسلونها إلى بلاط المناذرة معتذرين عاتبين ؛ ونصل هذا الذى قدمناه بما يُروَى عن حماد الراوية من قوله [١] : أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج — قال : وهى الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عُبيد قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار .

وقد يحلو لبعض القدامى أن يطعنوا فى حماد ويكذّبوه — وسنعرض لذلك فى بحثنا عن الرواية والرواة فى الباب التالى — وقد يحلو لبعض المحدّثين أن يطعنوا فى هذه الرواية بذاتها ويكذبوها ، ولكنهم لا يقدمون دليلاً يقوم عليه طعنهم وتكذيبهم ، وإنما هم يرسلون الكلام إرسالاً ويلقونه على عواهنه ؛ وهذا ابن سلاّم — وهو من هو شكًّا فى الشعر الجاهلى وفى بعض رواته — يسوق من هذه الرواية المتقدمة جوهرها ومضمونها ، وإن كان لا ينسبها إلى حماد ؛ وهو فى إيراده هذه الرواية يقبلها ولا يشكك فيها . قال ابن سلام [٢] : « وقد كان عند النعمان ابن المنذر منه (أى من شعر العرب فى الجاهلية) ديوان فيه أشعار الفحول وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه » . فالروايتان رواية واحدة ، وهى رواية تتسق اتساقاً كاملاً مع ما قدمنا من تقييد الشعر الجاهلى وتدوينه ، ولا نجد ما يسوغ التشكيك فيها ، إلا أن يقوم دليلٌ لم نستبنه بعد .

وثمة خبر آخر يؤيد الخبر السابق ويدعمه ، ويدل على مبلغ عناية بلاط المناذرة وأهل الحيرة بتدوين الأخبار والأشعار الجاهلية . فقد قال الطبرى [٣] : « كان أمر آل نصر بن ربيعة ، ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق ، عند أهل الحيرة متعالماً مُثبتاً عندهم فى

(١) ابن جنى ، الخصائص ١ : ٣٩٢ — ٣٩٣ .
(٢) طبقات فحول الشعراء : ٢٣ .
(٣) تاريخ (ط . مصر) ٢ : ٣٧ .

كنائسهم وأسفارهم » ، ثم يذكر الطبرى أن هشام بن محمد بن السائب الكلبى قال: « كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بِيَع الحيرة وفيها مُلكهم وأمورهم كلها » .

وقد قبل الباحثون من المستشرقين هذا القول ، فقال الأستاذ هـ . ا . ر . جب[١] : « ويُزعَم من ناحية أخرى أنه ربما وُجدتْ كتب مدونة فى الحيرة ، وأنه وجدت بالفعل بعض المقيدات التاريخية هناك ، فهذا لامراء فيه » . بل إن الأستاذ أولندر ليذهب إلى أبعد من ذلك فيقول عن ابن الكلبى إنه كان مؤرخاً حذراً متثبتاً على خلاف ما يصمه به خصومه من القدامى ، ثم يقول[٢] : « ومن المؤكد أنه استخدم النقوش والمدونات التاريخية فى الحيرة واستفاد منها ، ولذلك أكد الباحثون المحدثون أقواله مراراً ، وفى حالات منها أكدوها تأكيداً عجيباً ، مثال ذلك : تأكيدهم أقواله حينما اكتشفوا شاهد قبر امرئ القيس بن عمرو الحيرى[٣] » .

فأمامنا الآن — فى هذه النصوص والروايات الثلاث الأخيرة : شعر الفرزدق عن صحيفة دغفل فى النسب وما يُفهم من قوله عن وجود دواوين شعر جاهلى عنده ، ثم رواية حماد وابن سلام عن جمع النعمان للشعر الجاهلى وتدوينه ، ثم رواية ابن الكلبى عن أسفار الحيرة ونقوش كنائسها وما فيها من أخبار العرب الجاهليين وأنسابهم — أمامنا إذن ، فى هذه النصوص والروايات ، شعر جاهلى وأخبار جاهلية مدونة كلها فى كتب وأسفار ودواوين من الجاهلية نفسها . ومازال فى الحديث فضلٌ حقيق بأن يُذكر ليزيد ما تقدم حُجةً وإيضاحاً .

---

(١) مقالة عنوانها « بدء التأليف النثرى » فى مجلة الأدب والفن — السنة الأولى — الجزء الثانى — سنة ١٩٤٣ ص : ٤ .

(٢) Gunnar Olinder, Kings of Kinda P. 16-17.

(٣) انظر أيضاً : جواد على ؛ تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ٤٧ — ٤٨ ؛ وما كتبه الأستاذ أحمد زكى باشا فى مقدمة كتاب الأصنام ص : ١٢ — ١٨ .

وقد أشرنا فى حديث سابق إشارة عابرة إلى بيتى مَعقِل بن خويلد الهذلىّ — وهو شاعر جاهلى أدرك الإسلام — وهما[1] :

فإنّى كما قال مُمْلِى الكتا ب فى الرَّقّ إذْ خَطَّهُ الكاتبُ :
«يَرَى الشَّاهدُ الحَاضِرُ المُطْمَئِنُّ مِنَ الأَمر مَالَا يَرَى الغَائِبُ»

وقد وضعنا علامات الترقيم هذه لتدل على المعنى الذى قصدنا إليه من أن هذا الشاعر قد قرأ بيته الثانى — بهذه الألفاظ أو بألفاظ مقاربة تُؤدّى هذا المعنى — فى كتاب من كتب الشعر أو الأخبار الجاهلية ، ثم اقتبسه وضمنه قصيدته هذه .

وليس الأمر مجرد استنتاج ، فلهذين البيتين أخ ثالث قاله شاعر آخر وهو أوضح فى دلالته وأبين فى حجته لنا من هذين البيتين ، وذلك قول بشر بن أبى خازم — وهو شاعر جاهلى لم يُدرك الإسلام[2] :

وَجَدْنا فى كِتَابِ بنِى تَمِيمٍ : «أَحَقُّ الخَيْلِ بالرَّكْضِ المُعَارُ»

فبشر يذكر ، فى وضوح ، أنه وجد فى كتاب بنى تميم أن : أحق الخيل بالركض

---

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٧٠ .

(٢) المفضليات : ٩٨ وينسب البيت أيضاً للطرماح كما فى اللسان . وليس البيت فى ديوان الطرماح ، وإنما هو من الأبيات التى جمعت وأضيفت إلى آخر الديوان ، وهو هناك بيت مفرد منقول من اللسان . وذكر كرنكو (وهو محقق الديوان) ص : ١٤٨ بعد البيت أنه «قد ورد هذا البيت فى قصيدة لبشر ابن أبى خازم الأسدى ، وقال أبو عبيدة إنه للطرماح» .

وقد أورده الفيروزبادى فى قاموسه المحيط (عير) ، وقال إنه «قول بشر بن أبى خازم ، لا الطرماح ، وغلط الجوهرى» .

ومما يقوى نسبته لبشر أن فى كتب اللغة والأدب أبياتاً متفرقة من هذا البحر والروى منسوبة لبشر بحيث يصح أن تكون فى أصلها قصيدة واحدة منها هذا البيت .

ومهما يكن ، فإن البيت حتى إذا لم تثبت نسبته لبشر ، وكان حقاً للطرماح ، فإن دلالته ما زالت قائمة ، لأن الطرماح مات فى نحو سنة ١٠٥ هـ ، فيضم هذا البيت إلى الشواهد والأدلة التى تثبت وجود كتب القبائل ودواوين الأفراد منذ القرن الأول الهجرى .

المعار . وقد أورد صاحب اللسان هذا البيت[١] ، ولكنه أورد – قبل هذا البيت في أثناء حديثه عن هذه المادة اللغوية – بيتاً آخر يختلف عنه في الصدر ، ويتفق معه في العجز اتفاقاً تامًّا ، وهو :

أَعِيرُوا خَيْلَكُم ثم ارْكُضُوها   أَحَقُّ الخيلِ بالرَّكْضِ المعارُ

وابن منظور لا ينسب هذا البيت الأخير لشاعر بعينه ؛ وبذلك ترك لنا المجال مفتوحاً لننساق مع صريح ألفاظ بشر بن أبي خازم في بيته السابق ، فنفترض أن بيت اللسان غير المنسوب هو لشاعر تميمي جاهلي ، وأن بشراً قد قرأ هذا البيت في كتاب شعر بني تميم ، فاقتبس عجزه في بيته ، ولذلك وضعناه بين علامتي اقتباس .

وقد أورد المرزباني بيت بشر هذا وقال بعده[٢] : « فمعناه : وجدنا هذه اللفظة مكتوبة » .

• • •

فما هو كتاب بني تميم إذن ؟ الذي نراه أن كل قبيلة من القبائل كانت تجمع شعر شعرائها ، وحكم حكمائها ، وأقوال خطبائها ، وأخبارها ومفاخرها ومآثرها وأنسابها في كتاب . وقد احتفظ العرب بهذه التسمية لكتب القبائل بعد ذلك في العصور الإسلامية لتدل على هذا نفسه الذي قدّمنا . وسنعود إلى هذا الموضوع بالحديث المفصل حين نتكلم على دواوين القبائل في الفصل الثاني من الباب الأخير .

وقد مر بنا ذكر كتابَيْ قريش وثقيف اللذين كانا عند حماد الراوية (المتوفى سنة ١٥٦) وأنه نظر فيهما حين أرسل إليه الوليد بن يزيد[٣] .

ونضيف إلى كتب القبائل هذه التي تحوي أخبارها وأنسابها وشعر شعرائها :

---

(١) لسان العرب (عير) .
(٢) الموشح : ١٧٩ .
(٣) الأغاني ٦ : ٩٤ .

كتاب نسب قريش الذى كان مع ابن شهاب الزهرى[1] (المتوفى سنة ١٢٣ — ١٢٥).

ومما يدل أيضاً على قدم وجود كتب النسب هذه، ويزيد اطمئناننا إلى أنها كانت مدونة منذ الجاهلية، ما قاله عبد الله بن محمد بن عمارة[2] «فرتنى: أمٌّ لهم (أى لبنى حزم) فى الجاهلية من بَلْقَيْنْ، كانوا يُسبُّون بها، لا أدرى ما أمرها، قد طرحوها من كتاب النسب». وما ذكره أبو الفرج أيضاً عند حديثه عن قُريظة والنَّضير وبنى قَيْنُقاع وغيرهم قال[3] «لم أجد لهم نَسباً فأذكره لأنهم ليسوا من العرب، فتدون العرب أنسابهم، إنما هم حلفاؤهم». وهذا النص الأخير على تدوين العرب أنسابهم منصرف حتماً إلى العصر الجاهلى، لأن اليهود لم يكونوا حلفاء للعرب بعد الإسلام.

فكتب القبائل هذه — وإن كانت فيها زيادات إسلامية — توضح لنا معنى كتاب القبيلة فى الجاهلية، فهى — كما قدمنا — مجموعة فيها كل ما يتصل بالقبيلة من أخبار حروبها وأيامها، وذكر مفاخرها ومآثرها، وشعر شعرائها، وحكم بلغائها.

* * *

وربما أفردوا الحِكَم وجوامع الكلم فى كتاب خاص، وتكون فى هذه الحالة إما حِكَماً عامة مما قالته حكماء العرب من شتى القبائل، وإما مما قالته الحكماء من غير العرب ثم عرفه العرب ونقلوه إلى لغتهم؛ وذلك هو معنى قول عامر ابن الظَّرِب للملك الغسانى حينما خافه على نفسه وأراد أن ينجو منه[4]: «إن لى كنز علم وإن الذى أعجبك من علمى إنما هو من ذلك الكنز أحتذى عليه، وقد خلَّفته خلفى، فإن صار فى أيدى قومى علم كلهم مثلَ علمى، فأذَنْ لى حتى

(١) ابن عبد البر، القصد والأمم: ٤٣ — ٤٤.
(٢) الأغانى ٤: ٢٣٧.
(٣) الأغانى ٣: ١١٦.
(٤) أبو حاتم السجستانى، كتاب المعمرين: ٤٨ — ٤٩.

أرجع إلى بلادى فآتيك به » . فليس هذا الكنز من العلم – فيما نرى – إلا كتاباً جُمعت فيه أقوال بليغة وأمثال وحكم وأشعار وأخبار. وآية ذلك أن هذا الذى أعجبه من علمه لم يكن إلا أنه « أعجبه نحوُه ، فكلمه فإذا أحكمُ العرب وأحلمهم قولاً وفعلاً » .

ولو جاء ذكر كتب العلم (أى الحكمة وجوامع الكلم والأمثال) فى خبر واحد لشككنا فيه وتوقفنا عن قبوله ، ولكن ذكر هذا الضرب من الكتب قد تردد فى أخبار كثيرة لاسبيل إلى إهمالها ، فأكثم بن صَيْفى أحد هؤلاء العلماء الحكماء فى الجاهلية ، كانت بعض حكمته تُكتب ، وكان بعض الملوك يرسلون إليه يستكتبونها ، فقد « كتب إليه ملك هَجَر ، أو نَجْران ، أن يكتب إليه بأشياء ينتفع بها ، وأن يوجز ، فكتب إليه : إن أحق الحمق الفجور ، وأمثلُ الأشياء ترك الفضول . . »[١]

وكتب إليه أيضاً الحارث بن أبى شَمِر الغسانى ملك عرب الشام « ...فاعهد إلينا أمراً نعرف به أن فى العرب. . . حكمةً وعقولاً وألسنة . فكتب إليه أكثم : إن المروءة أن تكون عالماً كجاهل ، وناطقاً كعيي .. »[٢]

وكتب إليه كذلك النعمان بن المنذر « أن اعهدْ إلينا أمراً نُعجب به فارس وترغبهم به فى العرب . فكتب أكثم : لن يهلك امرؤ حتى يضيع الرأى عند فعله ، ويستبد على قومه بأموره . . . »[٣]

فإذا أضفنا إلى هذين الحكيمين العالمين حكيماً عالماً ثالثاً هو قُس بن ساعدة ، وعلمنا أنه كان أيضاً كاتباً[٤]، رجح عندنا أن هؤلاء الحكماء كانوا – أو كان أكثرهم – من الذين يعرفون الكتابة ويلجأون إليها فى تسجيل حكمهم

---

(١) كتاب المعمرين : ١٧ .
(٢) المصدر السابق : ١٨ .
(٣) المصدر السابق : ١٩ .
(٤) المصدر السابق : ٦٩ .

فى مثل هذه الكتب التى سميت كتب العلم .

وقد عُنى بعض الدارسين المحدثين بدراسة الأمثال عند العرب ومقابلتها بالأمثال عند الأمم القديمة وخاصةً الساميين. ومن هؤلاء الدكتور عبد المجيد عابدين[١] الذى تحدث فى أحد فصول رسالته عن الصلات الثقافية بين بلاد الشرق القديم ، وخاصة الحكمة والمثل[٢] ، وانتهى إلى قوله[٣] : « ولم تكن العلاقة بين العرب وأصحاب هذه الحكم ضعيفة واهية ، فقد أشارت النقوش البابلية غير مرة إلى صلات ملوك بابل وآشور ببلاد العرب ، وكان بعض شخصيات سفر أيوب من أصل عربى . وفى عصور ما بعد الميلاد أخذت الثقافة الآرامية تغزو مناطق عدة من شبه الجزيرة العربية كما رأينا فيما سبق . وكانت الحكمة اليونانية قد انتشرت فى مدارس الرّها وجنديسابور والحيرة على أيدى علماء السريان الذين بدأوا منذ حوالى ٣٠٠ سنة بعد الميلاد ينقلون هذه الحكمة، وواصلوا حركتهم إلى سنة ٧٠٠ م أى إلى عصر بنى أمية فى تاريخ المسلمين . وكان السريان فى القرن الخامس الميلادى يبشرون بالمسيحية فى الحبشة على المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، وهو المذهب الذى اعتنقه الغساسنة فى الشام . وكانت الصلات بين الحبشة واليمن قديمة ومستمرة . وبذلك أحدقت الآثار الكتابية ببلاد العرب وتسرّبت هذه الآثار إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ، وتعاونت جهود السلطات الحاكمة فى العراق والشام واليمن ، فى الجاهلية ، على تشجيع هذه الدعوات الكتابية ماديًّا وأدبيًّا . وفى فورة هذه الدعوات نشطت حكمة العرب، فى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة . وفى الوقت الذى كانت فيه الحكمة الشعبية تلاقى ازدهاراً على أيدى العراقيين ، وتجد تغاضياً من جانب الغساسنة وسادة

(١) فى بحثه «الأمثال فى النثر العربى القديم مع مقارنتها بنظائرها فى الآداب السامية الأخرى».

(٢) ص : ١٢٦ – ١٢٩ .

(٣) ص : ١٢٩ – ١٣٠ .

الحجاز واليمن قبل الإسلام ، كانت الحكمة الكتابية تشق طريقها فى أنحاء البلاد دون تفرقة بين شرق وغرب وشمال وجنوب ، وتلقى عناية القائمين بالأمر فى هذه المناطق جميعاً . وإذا كان الغساسنة وسادة الحجاز واليمن قد انصرفوا عن جانب التراث الشعبي فى منطقتهم ، فقد عضدوا الدعوات الكتابية ، وساندوا حركاتها ، وشجعوا حكماء العرب ما وسعهم التشجيع » . ثم ينتقل إلى الحديث عن هؤلاء الحكماء من بين عرب الجاهلية ، وبعد أن يذكر بعضهم يقول[١] :

« والذين اشتهروا من هؤلاء الحكماء كانوا ينهجون نهجاً يذكرنا بنهج حكماء الشرق الأدنى القديم ، فكان الحكيم العربى كالحكيم البابلى والعبرى يجمع أحياناً إلى عمل القاضى والمشرّع حرفة الكاهن والطبيب والمنجم ، فكان الحكيم هو الرجل المثقف ثقافة جامعة لشتى ألوان المعرفة ، وكان بعض حكماء العرب يورّثون الحكمة أبناءهم كما صنع حكماء الشرق القديم حين كانوا يلقنون أولادهم تعاليم الحكمة . . . »

ولعل مما يدل على عناية عرب الجاهلية بكتابة الأمثال عناية قديمة أن من أوائل المؤلفات التى حفظت لنا المصادر العربية ذكرها فى العصر الإسلامى : كتب الأمثال ؛ فمنذ أيام معاوية ألف صُحَار بن عَيَّاش العبدى (من عبد القيس) كتاباً فى الأمثال[٢] . وكذلك ألف فى زمانه عُبيد بن شَرِيّة كتاباً آخر فى الأمثال ذكر ابن النديم[٣] أنه رآه فى نحو خمسين ورقة . وقد روى علاقة بن كريم الكلابى عن عبيد كتابه هذا فى الأمثال [٤] .

ومما يدل أيضاً على أن هذه الحكم كانت مدونة منذ الجاهلية وبقيت إلى عهد الرسول والصحابة أن عمران بن حُصين قال[٥] : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : الحياء لا يأتى إلا بخير . فقال بشير بن كعب — وكان قد

(١) ص : ١٣٠ .
(٢) فهرست ابن النديم : ١٣٢ ، وانظر أيضاً البيان والتبيين ١ : ٩٦ .
(٣) الفهرست : ١٣٢ .
(٤) ياقوت : إرشاد ١٢ : ١٩٠ .
(٥) العسكرى : التصحيف والتحريف (مطبعة الظاهر بمصر سنة ١٩٠٨) ص : ٨ .

قرأ الكتب — : إن فى الحكمة : أنّ منه ضعفاً . فغضب عمران بن الحصين وقال : أحدثك بما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحدثنى عن صحفك هذه الخبيثة ؟

ثم هذه الصحيفة التى كانت مع سويد بن الصامت ، والتى لم تكن إلا كتاباً فيه حكمة لقمان [١]، وقد قرأها ، قبل أن يسلم ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستحسنها رسول الله وقال: « إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله تعالى علىّ ، هو هدى ونور » .

* * *

بقى أمر أخير فى النفس منه شىء ، بل أشياء : ذلك هو تسمية القصائد السبع أو العشر الجاهليات « بالمعلقات » . فقد ذكر القدماء أنه قد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له « أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القَباطى المدرجة ، وعلقتها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير . . . والمذهبات السبع ، وقد يقال لها : المعلقات » [٢]. وقد نقل البغدادى ما يشبه هذا الكلام ثم قال[٣]: « ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه ؛ لتكون فى خزانته » .

ولكن هذا الرأى فى تفسير كلمة « المذهبات » أو « المعلقات » لم يسلم من النقد والاعتراض سواء من القدامى أو من المحدثين . فمن القدامى أبو جعفر أحمد ابن محمد النحاس (المتوفى سنة ٣٣٨) الذى ذكر [٤] « أن حماداً هو الذى جمع السبع الطوال، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة » .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٦٨ ، والفائق ١ : ٢٠٦ ، ولسان العرب (جلل) .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد ٦ : ١١٩ .
(٣) الخزانة ١ : ١٢٣ – ١٢٤ .
(٤) ياقوت ، إرشاد (حماد)

أما المحدثون فلايسوقون على اعتراضهم دليلاً ، ولكنا نحسب ، من سياق حديثهم ، أن لاعتراضهم أساسين : الأول ــ أن العرب لم يكونوا فى جاهليتهم أمة كاتبة تبلغ بها معرفتها بالكتابة أن تسجل شعرها وتكتبه . والثانى ــ أن الكعبة لها من الاحترام والقدسية ما لا يبيح أن تُعلّق فيها المدونات والمكتوبات .

وأما نحن فإننا لا نملك وسيلة قاطعة للإثبات أو النفى ؛ ولا نحب أن نعتسف الطريق ونقتحم كما يقتحم غيرنا . وكل ما نستطيع أن نقوله إن الاعتراض الذى قدمه القدماء كاعتراض ابن النحاس ، والذى قدمه المحدثون ، لا يثبت ــ فى رأينا ــ للتحقيق والتمحيص ؛ فإذا ما استطعنا أن ننفى هذا الاعتراض بقى القول الأول بكتابة المعلقات وتعليقها ــ سواء فى الكعبة أو خزانة الملك أو السيد ــ قولاً قائماً ، ترجيحاً لا يقيناً ، إلى أن يتاح له اعتراض جديد ينفيه ، أو سند جديد يؤيده ويثبته .

أما ما ذكره ابن النحاس من أن حماداً هو الذى جمع السبع الطوال فإنه لا يقوم دليلاً على أنها لم تكن موجودة من قبله وأنها لم تكن مكتوبة أو معلقة ؛ وإلا لكان معنى ذلك أن الدواوين التى صنعها وجمعها أبو عمرو بن العلاء وأبو عمرو الشيبانى والمفضل والأصمعى والسكرى وثعلب ــ كلها غير موجودة من قبلهم ؛ وهو كلام لم يقله أحد ، ولا معنى له . والذى نعرفه ، مما قدمنا ، أن حماداً كان يجمع الشعر الجاهلى وكان يدونه ، وأنه كانت بين يديه نسخ من دواوين هذا الشعر ، فإذا صح أن حماداً هو الذى جمع ــ فى ديوان واحد أو مجموعة واحدة ــ هذه القصائد السبع بعد أن كانت مفرقة ، أو جددها بعد أن كادت تبلى ، فإن ذلك لا يقوم حجة على بطلان ما أوردناه من أمر تعليقها . وقد ذكرنا من قبل عناية بعض الخلفاء الأمويين بجمع الشعر الجاهلى وكتابته وحفظه فى الديوان . وقد ورد أن عبد الملك بن مروان عُنى أيضاً بجمع هذه القصائد المعلقات « فطرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة [1] » . فإذا صح ذلك

(١) البغدادى ، الخزانة ١ : ١٢٤ .

وصح ماروى من أن معاوية بن أبى سفيان قال[١] «قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة ، من مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهراً» — كان هذان دليلين على معرفة القوم بأمر المعلقات وكتابتها وتعليقها قبل حماد بدهر .

أما اعتراض المحدثين فقد تحدثنا — فى كل ما كتبنا — عن نفى الشق الأول منه ، وأبنّا فى وضوح أن الجاهلية العربية عرفت الكتابة معرفة قديمة واسعة ، واستخدمتها فى جُلّ شئونها ، وكتبت بعض شعرها وأخبارها وأنسابها ، ودونتها فى صحف وكتب ودواوين . فالقول إذن بأمية الجاهلية فرض واهم يجب أن نُسقط جميع ما رُتّب عليه من نتائج باطلة .

وأما الشق الثانى من اعتراض المحدثين فهو كذلك لايثبت للنظر والتحقيق ، إذ أن عرب الجاهلية كانوا يعلقون وثائقهم وكتاباتهم ذات القيمة فى الكعبة لقداستها فى نفوسهم ، وذلك إظهار لعلوّ مكانة هذه الوثائق والكتابات ولبيان قيمتها وخطرها . وأوضح مثال على أن تعليق هذه الكتابات كان أمراً مألوفاً متعارفاً عند عرب الجاهلية ما ذكره محمد بن حبيب عن حلف خُزَاعة لعبد المطلب ، قال[٢] : «... وكتبوا بينهم كتاباً ، كتبه لهم أبو قيس بن عبد مناف بن زُهرة ... ثم علقوا الكتاب فى الكعبة» .

ومثل ثان :

هذه الصحيفة التى كتبتها قريش حينما اجتمعت على بنى هاشم وبنى المطلب ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم[٣] . وقد بقيت هذه الصحيفة فى الكعبة دهراً ، فلما أخرجوها بعد ذلك وجدوا أن الأرضة لم تَدَعْ فى الصحيفة إلا أسماء الله[٤] .

---

(١) الخزانة ٣ : ١٦٢ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت — مخطوط بمكتبة أحمد الثالث ورقة : ١٥ — ١٦ .

(٣) ابن هشام ، السيرة ١ : ٣٧٥ — ٣٧٦ .

(٤) المصدر السابق ٢ : ١٦ وانظر مثلا تعليق العهود فى الكعبة فى العصور الإسلامية ، فى مروج الذهب ٣ : ٤٠٤ .

فإذا كان كلامنا هذا كافياً فى نفى هذين الاعتراضين — وإذا ضممنا إلى هذا ما ذكرناه من تدوين الشعر الجاهلى ، رجح عندنا أمر كتابة هذه المعلقات وتعليقها ، وصح عندنا أن نتخذها مثلاً آخر ، نورده فى هذا البحث ، من أمثلة تدوين الشعر الجاهلى وكتابته[1] .

٦

وبعد ،

فإن جميع ما ذكرناه لا يعدو أن يكون أمثلة قليلة ، نقبنا عنها تنقيباً طويلاً فى أرض غُفْل ، قد طمست آثارها ، وعَفت رسومها، واندرست معالمها ؛ ولكننا مع ذلك قد استطعنا أن نقيم فيها هذه الصُّوَى لتدل عليها وتحدد اتجاهها . فإذا صح ما ذكرناه من أن هذا الشعر الجاهلى قد دُوِّن بعضه منذ الجاهلية ، واتصل تدوينه وتجديده فى الإسلام ، فإننا نحب — استيفاءً للبحث — أن نصله بعصرنا هذا الذى نعيش فيه ، ونكشف عن صلة تلك المدونات الجاهلية والإسلامية المبكرة بهذه الدواوين التى بين أيدينا من الشعر الجاهلى ، والتى صنعها ورواها أبو عمرو بن العلاء والأصمعى والمفضل الضبى وأبو عمرو الشيبانى وابن الأعرابى . ولذلك حق لنا أن نسأل : هل أخذ هؤلاء العلماء الرواة ، فى نهاية القرن الثانى ومطلع القرن الثالث ، الشعر الجاهلى الذى رووه — من مدونات قديمة ؟ أو أنهم أخذوه كله من أفواه الرواة ؟ أما الرواية الشفهية فمجال بحثها فى الكتاب التالى ، ولذلك لن نعرض لها الآن ، وحسبنا أن نجيب عن الشق الأول من السؤال ، ونرى هل اعتمد هؤلاء العلماء على كتب ودواوينَ للشعر الجاهلى أخذوا منها — جمعاً أو اختياراً — ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى ؟

---

(١) للأستاذ مصطفى صادق الرافعى بحث جيد عن المعلقات (تاريخ آداب العرب ٣ : ١٨٦ — ١٩٣) وهو فى جملته يخالف رأينا . وانظر كذلك « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » للسيد محمد الخضر حسين ص: ٣٠٧ — ٣٠٩ .

وللإجابة عن هذا السؤال طريقان نحن سالكوهما ، الأول — عَرْضٌ لبعض الروايات والأخبار عن هؤلاء العلماء الرواة ، وكيف أخذوا علمهم ؛ والثانى — دراسة بعض الشعر الجاهلى الذى رووه ، واستبانة « القراءات » المختلفة للفظة الواحدة عند بعض هؤلاء العلماء .

أما الطريق الأول فقد عفّى العلماء أنفسهم آثاره تعفية مقصودة متعمدة مما سنفصل القول فيه بعد قليل فى ختام هذا الفصل ، ولكننا مع ذلك عثرنا على بعض ما يصح أن ننصبه فى طريقنا ليهدينا السبيل :

فقصة ابن الأعرابى (أبى عبد الله محمد بن زياد ١٥٠ — ٢٣١) مع الكتب قصةٌ مشهورة ، فقد كان كثير العكوف عليها ، والمدارسة لها ، والنظر فيها ، والأخذ منها . ولما بعث إليه أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع غلاماً من غلمانه يسأله المجىء إليه ، عاد إليه الغلام فقال : قد سألته ذلك فقال لى : عندى قوم من الأعراب ، فإذا قضيت أربى معهم أتيت. قال الغلام : وما رأيت عنده أحداً إلا أنى رأيت بين يديه كتباً ينظر فيها ، فينظر فى هذا مرة وفى هذا مرة [١].

أما الأصمعى (عبد الملك بن قُرَيب ١٢٣ — ٢١٦) فقد قرأ بعض دواوين الشعر الجاهلى على شيوخه ؛ قال الأصمعى [٢] : قرأت شعر الشنفرى على الشافعىّ بمكة . وقال أيضاً [٣] : قرأت على أبى عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبيانىّ . وقال أبو حاتم السجستانىّ [٤] : قرأ الأصمعىّ على أبى عمرو بن العلاء شعر الحطيئة . وقُرِئَ يوماً على الأصمعى فى شعر أبى ذؤيب : بأسفلَ ذات الدَّبْر أفْرِدَ جَحْشُها . فقال أعرابى حضر المجلس للقارئْ : ضَلَّ ضلالك أيها القارئْ ، إنما هى « ذات الدَّبْر» وهى ثنية عندنا ؛ فأخذ الأصمعى بذلك

---

(١) ياقوت ، إرشاد (محمد بن زياد) .
(٢) السيوطى ، المزهر : ١ : ١٦٠ .
(٣) المرزبانى ، الموشح : ٤٢ .
(٤) المزهر ٢ ، ٣٥٥ .

فيما بعد [١].

وكذلك كان أبو عبيدة (معْمَر بن المثنى ١١٤ — ٢١٠) وأبو حاتم السجستانى يتدارسان الشعر الجاهلى فى كتب ؛ قال أبو حاتم [٢] : جئت أبا عبيدة يوماً ومعى شعر عُروةَ بن الورد ، فقال لى : ما معك ؟ فقلت : شعر عُروة . قال : فارغٌ حَملَ شعر فقير ليقرأه على فقير !

وأما أبو عمرو الشيبانىّ (إسحق بن مِرار ، توفى سنة ٢٠٦ أو ٢١٣ ، وعمره ١١٠ أو ١١٨ سنة) فقد كان كذلك يكتب الشعر والأخبار ويأخذها من الكتب. قال يعقوب بن السكيت [٣] «مات أبو عمرو الشيبانىّ وله مائة وثمانى عشرة سنة ، وكان يكتب بيده إلى أن مات ؛ وكان ربما استعار منى الكتاب وأنا إذْ ذاك صبيٌّ آخذ عنه وأكتب من كتبه» . وقد قرأ أبو عمرو الشيبانىّ دواوين الشعراء على المفضل [٤].

أما أبو عمرو بن العلاء فقد مر بنا ذكر كتبه وكثرتها ثم إحراقها بعد أن تقرأ .

وهذا حديث بين ابن مناذر الشاعر وخلف الأحمر يدل — فيما نرى — على أن الشعر الجاهلى كان مدوناً فى الكتب قبل عهدهما ، وأنهما كانا يعرفان هذه الكتب ويأخذان منها . قال ابن مناذر لخلف [٥] : يا أبا مُحْرِز ، إن يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعرى إلى شعرهم ، واحكم فيها بالحق ؛ فغضب خلف . . .

ومن أوضح الأمثلة على هذا الذى نحن بسبيله : ما ورد عن أبى تمام (توفى سنة ٢٣١) حينما اختار حماسته ؛ وذلك أن الثلج عاقه عن السفر ، وكان فى

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٢٩ .
(٢) المزهر ١ : ١٦١ .
(٣) ابن النديم ، الفهرست ١٠٢ .
(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١ : ٦٥ .
(٥) ياقوت ، إرشاد (خلف) .

العراق ، فاستضافه أبو الوفاء بن سلمة ، وأحضره خزانة كتبه ، فطالعها ، واشتغل بها ، وصنف خمسة كتب فى الشعر ، منها كتاب الحماسة والوحشيات[1].

وما ورد كذلك عن المفضل الضبى (توفى سنة ١٦٨ أو ١٧٨) حين قال له العباس بن بكار[2] : ما أحسن اختيارك للأشعار ؛ فلو زدتنا من اختيارك . فقال المفضل : والله ما هذا الاختيار لى ، ولكن إبراهيم بن عبد الله استتر عندى (فى نحو سنة ١٤٥) فكنت أطوف وأعود إليه بالأخبار ، فيأنس ويحدثنى ؛ ثم عرض لى خروج إلى ضيعتى أياماً ، فقال لى : اجعل كتبك عندى لأستريح إلى النظر فيها . فتركت عنده قمطرين فيهما أشعار وأخبار ، فلما عدت وجدته قد علّم على هذه الأشعار ، وكان أحفظ الناس للشعر ، فجمعته وأخرجته ، فقال الناس : اختيار المفضل .

فهذه كلها أخبار صريحة الدلالة على أن هؤلاء العلماء الرواة إنما وجدوا أمامهم دواوين الشعر الجاهلى مكتوبة قبل عهدهم ، وأنهم قرءوها وتدارسوها وأخذوا منها ؛ ومن هنا كانت الدواوين التى صنعوها أو المجموعات التى اختاروها قائمة ــ فى أساسها ــ على ما كان مُدوّناً من قبل عصرهم .

أما الطريق الثانى لمعرفة أخذ هؤلاء العلماء المتقدمين أشعار الجاهلية من الكتب ــ فيقوم على جمع بعض الأمثلة على اختلاف اللفظة الواحدة عندهم . وأسباب اختلاف الرواية كثيرة ، لا يعنينا منها هنا إلا ما له دلالة على بحثنا ، ونقصد به : التصحيف ، لأن « أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته فى صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب[3] » . ولن نعرض إلا لما وقع فيه رواة آخر القرن الثانى ، أما من جاء بعدهم فقد أخذوا من

---

(١) التبريزى ، شرح الحماسة : المقدمة ص : ٤

(٢) المزهر ٢ : ٣١٩ ، وانظر أيضاً : مقاتل الطالبيين لأبى الفرج : ٢٧٣

(٣) المزهر ٢ : ٢٥٣ .

كتب هؤلاء ، ولا حاجة بنا إلى عرضه إذ لا دليل فيه .

فمن أمثلته: ما ذكره أبو حاتم السجستانى قال [١]: قرأ الأصمعى على أبى عمرو بن العلاء شعر الحطيئة ، فقرأ قوله :

وَغَرَرْتَنِى وزَعَمْتَ أنَّـــكَ لَابِنٌ بالصيْفِ تامِرْ

— أى كثير اللبن والتمر — فقرأها «لا تنى بالضيف تامُرْ» يريد : لا تتوانى عن ضيفك تأمر بتعجيل القِرَى له . فقال له أبو عمرو : أنت والله فى تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة ! !

وقال الأخفش [٢]: أنشدتُ أبا عمرو بن العلاء .

قالت قُتَيْلَةُ مالَهُ قَدْ جُلِّلَتْ شَيْبًا شَواتهْ

فقال أبو عمرو : كبرت عليك رأس الراء فظننتها واواً . قلت : وما سراته ؟ قال : سراة البيت : ظهره . قال الأخفش : ما هو إلا «شواته» ، ولكنه لم يسمعها .

ولهذين الخبرين قيمة خاصة إذ يدلان صراحة على أن الأصمعى والأخفش وأبا عمرو بن العلاء قد قرءوا هذا الشعر فى كتب ، وبذلك يسّرا لنا سبيل التدليل على أن هذا الضرب من التصحيف لا يكون من خطأ فى السماع ، وإنما ينشأ من خطأ فى القراءة .

وقال أبو حاتم أيضاً [٣]: صحف الأصمعى فى بيت أوس :

يَا عَامِ لو صَادَفْتَ أَرْمَاحَنا لكانَ مَثْوى خَدِّكَ الأَخْزَما

— يعنى بالأحزم : الحزم الغليظ من الأرض . قال أبو حاتم : والرواة على

---

(١) المزهر ٢ : ٣٥٥ ، وانظر كتاب التصحيف والتحريف للعسكرى : ٥٥ .
(٢) المزهر ٢ : ٣٦٠ .
(٣) المزهر ٢ : ٣٥٥ .

خلافه ، وإنما هو : الأخرم (بالراء) ، وهو طرف أسفل الكتف ، أى كنت تُقتَلُ فيقطع رأسك على أخرم كتفك .

وقال القالىّ فى أماليه (١) : أنشد أبو عبيد :

أشكو إلى اللهِ عِيالًا دَرْدَقا مُقَرْقَمِينَ وَعَجُوزًا شمْلَقا

ــ بالشين معجمة ــ وهو أحد ما أُخذ عليه: وروى ابن الأعرابىّ : « سَملقا » ــ بالسين غير المعجمة ــ وهو الصحيح .

وقال القالى أيضاً (٢) فى قول الأعشى :

تَرُوحُ على آلِ المُحَلَّق جَفْنَةٌ كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقىّ تَفْهَقُ

كان أبو مُحرز (يقصد خلفاً الأحمر) يرويه « كجابية السيح » ، ويقول : « الشيخ » تصحيف ، والسيح : الماء الذى يسيح على وجه الأرض .

وأنشد أبو زيد فى نوادره (٣) :

إنَّ التى وضعتْ بيتًا مهاجرةً بكوفة الخُلدِ قد غالت بها غُولُ

قال الرياشىّ : الأصمعى يقول « بكوفة الجند » ، ويزعم أن هذا تصحيف . وقال الجرمىّ : كوفة الخلد ، أى أنها دار قرار لا يتحولون عنها .

وقال أبو عمرو الشيبانى (٤) : كنا بالرقة فأنشد الأصمعى بيت الحارث ابن حلزة :

عَنَتًا باطلًا وَظُلْمًا كَمَا تُعْـــــنَزُ عن حَجْرَةِ الرَّبِيضِ الظِّبَاءُ

---

(١) المزهر ٢ : ٣٥٦ ؛ وأمالى القالى ٢ : ٢٤٦ . دردق : صغار . مقرقمين : لا يشبون لسوء غذائهم ، شملق : العجوز الكبيرة .

(٢) المزهر ٢ : ٣٥٦ ، وأمالى القالى ٢ : ٢٩٦ الجابية : الحوض الكبير . تفهق : تمتلىء حتى تفيض .

(٣) المزهر ٢ : ٣٥٧ .

(٤) المصدر السابق ٢ : ٣٥٩ تعنز : تطعن بالعنزة ، وهى الحربة .

فقلت له : إنما هو « تُعْتَر » من العتيرة ، والعتر : الذبح . . .

والحديث عن التصحيف لا ينتهي كثرةً ، وهو متفرق في كتب الأدب ، مجموع في مظانه ، من مثل كتاب العسكري « التصحيف والتحريف » ، وكتاب البصري « التنبيهات على أغاليط الرواة » وكتاب حمزة بن الحسن الأصفهاني « التنبيه على حدوث التصحيف » وكتاب السيوطي « المزهر » . ولعل خير مانختم به هذه الأمثلة ما قاله أبو عمرو الشيباني [1] : « روى أبو عُبيدة بيت الأعشى :

. . . . وسيق إليه البَاقِرُ العَثِلُ

فأرسلتُ إليه : قد صحّفتَ ، إنما هو « الغُيُلُ » أي الكثير — يقال : ماء غُيُل إذا كان كثيراً — ورُوي عنه أيضاً أنه قال : الغُيُل: السمان ، من قولهم : ساعد غَيِل . وكان أبو عبيدة يروي هذا البيت :

إني لَعَمْرُ الذي حَطَّتْ مَنَاسِمُها تَخْدِي وَسِيقَ إليه الباقرُ العَثِلُ

وحكى ابن قُتيبة أن أبا حاتم قال له : سألت الأصمعيّ عنه فقال : لم أسمع بالعثل إلا في هذا البيت ، ولم يفسره . قال : وسألت أبا عبيدة عنه فقال : العثل : الكثير . قال ابن قتيبة : وخبرني غيره أن الأصمعي كان يروي « وجدٌ عليها النافر العَجِلُ » يريد : النفار من منى ، والنافر لفظه لفظ واحد وهو معنى جمع . . . ورواه أبو عبيدة : « حطتْ مناسمها » بالحاء غير معجمة ، وقال : يعني حطاطها في السير وهو الاعتماد . ورواه الأصمعي « خطت » بالخاء ، أي شقت التراب ، وأنشد للنابغة « فما خططتُ غباري » أي شققته . وقال الأصمعي : « حطت » خطأ . — فانظر إلى اختلافهم في هذا البيت ، وردّ بعضهم على بعض ، ومراسلة أبي عمرو أبا عبيدة فيه » .

---

(١) البصري ، التنبيهات على أغاليط الرواة ورقة : ١ . الباقر : اسم جمع للبقر . العثل : الكثير .

٧

فإذا كان الأمر على ما بينّا ، وإذا رجح عندنا أن هؤلاء العلماء قد أخذوا بعض ما جمعوا وما اختاروا من الشعر الجاهلى – من صحف وكتب ودواوين ربما كُتب بعضها فى العصر الجاهلى وُجدّدت فى القرن الهجرى الأول – فما بالهم إذن لا يصرّحون بذلك ؟ وكيف يكون الأمر على هذا الوجه ثم لا يذكر أحد من هؤلاء العلماء أنه أخذ هذه القصيدة أو ذلك البيت من كتاب عالمٍ قبله ، أو من ديوانٍ جُمع فى القرن الأول أو توارثوه من الجاهلية ؟

والجواب عن هذا السؤال سنفصل القول فيه تفصيلاً حين نتحدث عن طريقة أخذ هؤلاء العلماء علمَهم ، وعن الرواية والرواة بعامة ، فى الباب التالى . ولكن ذلك لا يعفينا من أن نشير فى هذا الموضع إشارة فيها بعض ما يجيب هذا التساؤل .

فإغفالهم ذكر الكتب التى أخذوا منها راجع ، فيما يبدو لنا ، إلى طريقتهم فى أخذ العلم وتحصيله آنذاك . فقد كان العالم الحق الجدير بالثقة هو الذى يتصل بالعلماء من ذوى السن ، فيحضر مجالسهم ويلازمهم ويستمع إليهم ويأخذ عنهم ، والكتاب فى كل ذلك ، أو فى أكثره ، هو الوسيلة أو الأداة : يقرأه على شيخه ، أو يستمع إلى بعض من يقرأه ، وقد تكون فى يده نسخة أخرى من الكتاب يتابع قراءة القارئ ، والشيخ يستمع : يصحح الخطأ ، ويشرح الغامض ، ويذكر من وجوه الخلاف فى الألفاظ ما بلغ إليه علمه ، ويتحدث عما حول النص من جو تاريخى ، وقد يقوده اللفظ أو الخبر إلى لفظ فى بيت آخر ، أو إلى خبر فى حادثة أخرى ، فيستطرد ، ثم يعود إلى موضوعه الأصيل .

أما من كان يكتفى بالأخذ من الكتاب وحده ، دون أن يعرضه على العلماء ، ودون أن يتلقى علمه فى مجالسهم ، فقد كان عرضة للتصحيف والتحريف ، وبذلك لم يعدّوا علمه علماً ، وسموه صحفياً لا عالماً . قال ابن سلام[١] فى معرض حديثه عن الشعر القديم « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » . وشبيه بهذا قولُ ثعلب عن كتاب العين للخليل[٢] « وقد حشا الكتابَ أيضاً قوم علماءُ إلا أنهم لم يؤخذ منهم رواية ، وإنما وُجد بنقل الورّاقين ، فاختلّ الكتاب لهذه الجهة » .

ومن هنا ضعّفوا الأخذ من المدونات فى التفسير والحديث ؛ فكان بعضهم يتّقى تفسير مجاهد (توفى سنة ١٠٣ وعمره ٨٣ سنة) لأنهم « كانوا يرون أن مجاهداً يحدّث عن صحيفة جابر »[٣] وقال يحيى بن سعيد القطان فى أحاديث سَمُرة التى يرويها الحسن عنه : سمعنا أنها من كتاب[٤] ؛ وقال سفيان الثورى عن حديث عبد الأعلى بن عامر الثعلبى[٥] : كنا نرى أنه من كتاب ، وكان ضعيفاً فى الحديث . وقال يحيى بن معين[٦] : إذا حدث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (يعنى عبد الله بن عمرو بن العاص) فهو كتاب ، ومن هنا جاء ضعفه ، وإذا حدث عن سعيد بن المسيب أو سليمان بن يسار أو عُروة ، فهو ثقة عن هؤلاء . وقال كذلك أبو زرعة إن عمرو بن شعيب[٧] « إنما سمع أحاديث يسيرة ،

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٥ — ٦ .
(٢) أبو الطيب اللغوى « مراتب النحويين » ورقة : ٤٩ .
(٣) ابن حجر « الإصابة ٥ : ٣٤٤ .
(٤) ابن سعد ٧ : ١١٥ .
(٥) ابن سعد ٦ : ٢٣٣ .
(٦) تهذيب التهذيب ٨ : ٤٩ .
(٧) تهذيب التهذيب ٨ : ٤٩ .

وأخذ صحيفة كانت عنده فرواها . . . وهو ثقة فى نفسه ، إنما تُكلِّم فيه بسبب كتاب عنده » .

ومن أجل ذلك كان مما يهجَى به العالم الاكتفاءُ بالأخذ عن الصحف وحدها، وإهمال الإسناد إلى الشيوخ، فقال بعضهم يهجو أبا حاتم السجستانى(١) :

إذا أَسْنَدَ القَوْمُ أخبارَهُمْ   فإسنادُهُ الصُّحْفُ والهَاجِسُ

ومن أجل ذلك أيضاً كان مما يُمدح به العالم أنه لا يكتفى بالأخذ عن الصحف وحدها فلا يقع فى التصحيف، ومن ذلك ما مدّح به أبو نواس خلفاً الأحمر(٢) :

لا يَهِمُ الحَاءَ فِى القِراءَةِ بِالْ   خَاءِ وَلا لَامَهَا مَعَ الأَلِفِ

وَلا يُعَمِّى مَعْنَى الكلامِ ولا   يكونُ إنشادُه عن الصُّحُفِ

وقال فيه أيضاً :

فَكُلَّما نَشاءُ مِنْهُ نَغْتَرِفْ   رَاوِيَةٌ لَا يَجْتَنِى منَ الصُّحُفْ

أفليس من الطبيعى بعد هذا كله أن يتجنب هؤلاء العلماءُ النصَّ على الكتب التى أخذوا منها ، وأن يكتفوا بسماعهم شيخهم أو قراءتهم عليه ؟

ثم إذا بلغ هذا المتعلم من العلم مبلغاً يتيح له أن يجلس منه المتعلمون مجلسه من أولئك العلماء ، أسند ما يلقيه من العلم إلى شيوخه ، فيقول : حدثنا فلان ، وأخبرنا فلان ، وسمعت فلاناً يقول . وهذه الصيغ المختلفة للتحديث موهمةٌ أنها كانت رواية شفهية ، وأن مجلس العلم كله كان حديثاً لا كتاب فيه . ولكن الأمر على غير ذلك . فإن هذه الصيغ كلها إنما تدل على ما ذكرناه من حديث

---

(١) العسكرى ، التصحيف والتحريف : ١٣ .

(٢) التصحيف والتحريف : ١٣ والبيتان فيه متداخلان محرفان ، وصوابهما من ديوانه ص : ١٣٥ ؛ المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨ .

العالم الشيخ فى مجلسه ، والمتعلمون والعلماء من حوله يقرأون أو يستمعون إلى من يقرأ ، والشيخ العالم يشرح . والدليل على ما ذكرنا من أن مجالس العلم كانت تقوم على قراءة الكتاب وحديث الشيخ معاً ، وأن إسناد التحديث إنما هو فى حديث الشيخ وحده ، وأنه لا ينفى وجود الكتاب — الدليل على ذلك ما نجمعه هنا :

قال محمد بن عمر الواقدى[١] : سألت ابن جُريج (توفى سنة ١٥٠ وعمره ٧٦ سنة) عن قراءة الحديث على المحدِّث ؛ فقال : ومثلك يسأل عن هذا ؟ إنما اختلف الناس فى الصحيفة يأخذها ويقول : أحدث بما فيها ، ولم يقرّها ، فأما إذا قرأها فهو سواء .

وقال عثمان بن عبيد الله بن أبى رافع[٢] : رأيت من يقرأ على الأعرج (هو أبو داود عبد الرحمن بن هرمز المتوفى سنة ١٧٧) حديثه عن أبى هُريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : هذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم . قال : فأقول حدثنى عبد الرحمن ، وقد قرأتُ عليك ؟ قال : نعم ، قل : حدثنى عبد الرحمن بن هرمز .

وهل أدل على وجود الإسناد — مما يوهم السماع وحده — بينما يكون المصدر الأصيل هو الصحيفة — من هذه الكتب التى كتبها عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان يجيبه فيها عما يسأله ، ويذكر فيها بعض الحوادث التاريخية؟ فمع أنها مدونة فى صحف نجد الطبرى ، حينما يوردها فى تاريخه ، يذكر لها إسناداً فيقول[٣] « . . . أبان العطار قال : حدثنا هشام بن عروة أنه كتب إلى عبد الملك . . . »

---

(١) ابن سعد ٥ : ٣٦١ .

(٢) المصدر السابق ٥ : ٢٠٩ .

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١١٨٠ .

فهذه كلها صريحة فى أن الإسناد لا ينفى وجود الصحيفة أو الكتاب ، وأن الكتاب والسماع جزءان يتمم أحدُهما الآخر . بل إن الإسناد قد يوهم السماع حيث لا سماع ، وإنما هو أخذٌ من صحيفة أو كتاب من غير قراءة على الشيخ وسماع منه . قال الواقدى[1] عن عبد الرحمن بن أبى الزناد أنه شهد ابن جُرَيج جاء إلى هشام بن عروة فقال : يا أبا المنذر ، الصحيفة التى أعطيتَها فلاناً هى حديثك ؟ قال : نعم . قال الواقدى : فسمعت أن جريج بعد هذا يقول : حدثنا هشام بن عروة ، ما لا أحصى . فابن جريج فى هذا الخبر لم يسمع هشام ابن عروة ، وإنما أخذ من صحيفة ولم يستمع إليه وهو يحدّث بها ، ومع ذلك فهو يسند ، ويقول : حدثنا هشام بن عروة ؛ وذلك لأنه اطمأن إلى أن ما فى الصحيفة من حديث هشام حقًّا .

وخبر آخر يؤيد هذا الخبر السابق ، وهو عن ابن جُرَيج نفسه . قال الواقدى[2] : حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة قال : قال لى ابن جريج : اكتب لى أحاديثَ سُنن قال : فكتبت له ألف حديث ثم بعثت بها إليه ، ما قرأها علىّ وما قرأتها عليه . قال الواقدى : فسمعت ابن جريج بعد ذلك يحدّث يقول : حدثنا أبو بكر بن أبى سبرة ، فى أحاديث كثيرة .

وقد مر بنا أن عطاء بن دينار روى التفسير عن سعيد بن جبير ، ولكنه لم يسمعه منه ، وإنما وجد عطاء هذا التفسير فى ديوان عبد الملك بن مروان ، فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير[3] .

ومن هذا القبيل ما يورده أبو الفرج فى أغانيه عن أبى خليفة عن محمد ابن سلام ، إذ يقول أبو الفرج[4] « أخبرنى أبو خليفة إجازةً عن محمد بن سلام قال . . » . وأبو الفرج لم يلقَ أبا خليفة ، وإنما كان يكتب إليه ، ويؤيد ذلك

(١) ابن قتيبة ، المعارف : ٢١٤ .
(٢) ابن سعد ٥ : ٣٦١ .
(٣) ابن أبى حاتم ، الجرح والتعديل ٣/١ : ٣٣٢ .
(٤) الأغانى ٢ : ٣٣١ .

قوله [١] : « أخبرنى الفضل بن الُحباب الجمحى أبو خليفة فى كتابه إلىّ بإجازته لى يذكر عن محمد بن سلام . . . » فهذا إسناد وإجازة معاً من غير سماع ولا لقاء .

• • •

وذلك كله ينتهى بنا إلى ما ذكرناه قبل قليل من أن طريقة السلف فى أخذ العلم وتحصيله تعتمد على الرواية ، وأن الرواية تقوم على دعامتين ؛ الأولى — الكتاب : يقرأه أحد الحاضرين فى مجلس العلم ، والآخرون يستمعون إليه أو يتابعون ما يقرأ فى نسخ بين أيديهم من الكتاب نفسه . والثانى — السماع : وذلك حينما يتحدث الشيخ نفسه يصحح خطأ ، أو يشرح غامضاً ، أو يذكر ما حول النص من حوادث تاريخية . وأن لفظ « حدثنا » أو « أخبرنا » لفظ عام ، قد يدل على الرواية بدعامتيها : القراءة والسماع : وقد يدلّ على السماع وحده ؛ وقد يدل على القراءة وحدها دون سماع — كما رأينا فى الأمثلة الأربعة الأخيرة .

(١) الأغانى ٢ : ١٥٨ .